لام المسلمين

١٨

كعب بن مالك

الأنصاري

شاعر العقيدة الإسلاميّة

الدكتور سامي مكّي العاني

دار القلم

دمشق - بيروت

أعلام المسلمين
١٨

كعب بن مالك رضي الله عنه

الأنصاري

شاعر العقيدة الإسلاميّة

الدكتور سامي مكّي العاني

الطبعة الثانية

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

هذا الرجل

« إنك لَتحَسن الشعر » .

« شكرَكَ ربك على قولك هذا يا كعب » .

محمد رسول الله ﷺ

« أبشر يا كعبُ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك !! » .

ويسأل كعب :

أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

ويجيب صلوات الله وسلامه عليه :

« لا ، بل من عند الله عز وجل !! » .

عن البخاري ومسلم وكتب السنن

« شهد العقبة وأُحداً والمشاهد إلاّ بدراً وتبوك ، وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم وأنزل فيهم : وعلى الثلاثة الذين خلّفوا ... » إلخ .

الامام النووي

« لبس كعب يوم أحد دِرْع النبي ﷺ وكانت صفراء ، ولبس النبي درعه ، وجرح كعب يومها إحدى عشرة جراحة » .

ابن الأثير في أسد الغابة

« .. وهو أحد شعراء النبي ﷺ المجاهدين بأيديهم وألسنتهم ، وهم ثلاثة : حسّان ، وكعب ، وابن رواحة .

وكان حسّان يقع في الأنساب ، وابن رواحة يعيرهم بالكفر ، وكعب يخوفهم وقائع السيف » .

عن الرياض المستطابة

المقدّمة

بدأ المسلمون في السنوات الاخيرة يستيقظون مـن سباتهم العميق ، وينفضون عنهم غبار الجهل والتأخر ، ليشقوا طريقهم نحو النور والتقدم .

وطبيعي الاّ يروق ذلك لمن تسلطوا عليهم ، أو استفادوا من تأخرهم ، وافزعهم الاّ يجدوا بأيديهم السلطة التي تستطيع أن تعرقل هذه النهضة ، او تؤخر مسيرتها الظافرة ، فراحوا يفكرون بوسيلة اخرى تحقق لهم أغراضهم الدنيئة ، واهتدوا إليها مؤخراً .

فكانت تشكيك المسلمين بكـل ما هـو أصيل أو عريـق في حضارتهم ، ليفقدوا ثقتهـم بأنفسهم وأمتهم ، فيرجعوا أخيراً يستجدون منهم عقائدهم ، وأسس حياتهم وأهدافهم ، ولهـذا تعرض العالم الإسلامي بأسره لحملة واسعة منظمة ترمي إلى طمس كل ما هو خير في حضارته ، وإبراز كـل ما يمكن ان يشوهها ، أو يظهر الفجوات فيها .

ومن هنا كان لزاماً على ابناء هذا الجيل من المسلمين ان يعملوا على رصد معالم حضارتنا ، وتجلية مفاخرها ، ومن خير

ما يحقق هذه الغاية ، دراسة أعلامها المبرّزين الذين أتيح لهم أن يسهموا في تخطيط أبعاد تلك الحضارة ، وإرساء قواعدها ، والكشف عن بعض جوانب عظمتها .

وقد رأيت من واجبي وأنا واحد من المشتغلين بميدان الادب أن آخذ نفسي بدراسة علم من أعلام البيان في هذه الأمة ، رَفَع كلمتها ، وعبر عن أهدافها في بداية مراحل تكوينها ، وأولى مجاهداتها أعداءها ، معتمداً في ذلك كله على ما أوتي من شاعرية فذة وبيان رائع ؛ بعثاً لمظاهر نشاط خصب قامت به الطلائع المبكرة في تاريخ حضارتنا العريقة ، وإضاءة لمشاعل الحقيقة في طريق العلم والمعرفة . ذلكم الشاعر هو كعب بن مالك الانصاري الذي تراءى لي طَوْداً شامخاً وعلماً سامقاً ، جمع بين قوة السنان ، وفصاحة اللسان ، ورقة الوجدان ، وغزارة الإيمان .

وهو في طليعة شعراء العصر الاسلامي الذين حملوا عبء الدفاع بشعرهم عن الاسلام ، والذود عن حماه ، ورد سهام أعدائه الى نحورهم ، في تلك المعركة العنيفة التي احتدم أوارها بين شعراء الكفر والايمان . فشعره من هذه الناحية يمثل مرحلة جديدة في الشعر العربي من حيث الشكل والمضمون .

ومن ناحية ثانية عبر في شعره عن أسمى المعاني الانسانية التي جاء بها الاسلام ، وصور المجتمع المسلم في أزهى عصوره التاريخية .

ومع ذلك لم يتهيأ له من جمع شعره ، أو حفظ تراثه ، ناهيك عن دراسته، فبقيت أخباره مشتتة، وخصائصه الفنية غير واضحة.

وبعد : فلا أريد أن أسهب في الحديث عن كعب في هذه المقدمة لأني مهما قلت لا أستطيع أن أقدمه كما قدّم نفسه من خلال سيرته وفنه .

ولقد أسعدني أن تخرج هذه الدراسة عن كعب بن مالك شاعر الرسول ﷺ في سلسلة أعلام المسلمين التي تصدرها دار القلم بدمشق ؛ هذه السلسلة التي تترجم لأعلام المسلمين الدعاة الهداة المصلحين ، وتبرز فضائلهم وآثارهم ، وتقدم سيرتهم لأبناء هذا الجيل كي يأتسوا بها وينسجوا على منوالها .

والله أرجو أن يديم عونه وتوفيقه لهذه السلسلة وللدار الناشرة ، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير .

الدكتور سامي مكي العاني

استاذ الأدب الإسلامي في كلية الآداب

بجامعتي بغداد والمستنصرية

الفصل الأول

بيئة كعب رضي الله عنه

« المدينة المنوّرة »

البيئة الطبيعية :

تقع المدينة في إقليم الحجاز ، في سهل ينحدر تدريجياً نحو الشمال ، ويقع في شماليه جبل احد وفي جنوبيه جبل عير ، وهما يبعدان عن المدينة اربعة كيلو مترات تقريباً .

ويحد هذا السهل من الغرب والشرق حرات واسعة تغطيها حصيات سوداء بركانية ، وتشتمل هذه الحرات الشرقية على مساحات صالحة من الارضين الخصبة ، واما من الجهة الجنوبية فيمتد السهل المذكور على مدى البصر .

وهي تبعد عن مكة بمائتين وخمسة وعشرين ميلاً ومساحتها اقل من نصف مكة .

وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩م ، وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و ٣٢ دقيقة شرقا ، وعلى عرض ٢٤ درجة و ٣٠ دقيقة شمالا .

ومناخها صحراوي متطرف ، درجة حرارتها في الصيف تصعد

إلى ٤٨ سنتيجراد أحياناً ، وتنزل في الشتاء إلى ١٠ درجات فوق الصفر نهاراً وإلى ٥ تحت الصفر ليلاً .

* * *

وتخترق المدينة عدة وديان ، تجري عموما من الجنوب ، والجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، وتتوفر فيها المياه وخاصة بعد الامطار ، وأهم هذه الوديان : بُطحان ، ومذينب ، ورانوناء ومهزور ، وقناة ، والعقيق .

ومن هذه الاودية ما كان يهدد المدينة بالغرق أحياناً كوادي مهزور فقد روى ابن شبّة ، انه سال زمن عثمان سيلاً عظيماً ، خيف على المدينة منه الغرق فعمل عثمان الردم الذي عند بئر مِدْرَى ليرد به السيل عن المسجد وعن المدينة .

وتنتشر فيهذهالوديان العيونوالآبار ، واشهرها : عينالأزرق، وبئر أريس ، والاعواف ، وأنَا ، واهاب ، وورومة ، وعروة . فيشرب أهل المدينة سائر السنة من هذه العيون والآبار .

وأجمل ما في المدينة وادي العقيق الذي اكثر من وصفه عدد كبير من الشعراء العرب ، وفيه عيون ونخيل ، وفيه عرصتان قيل إنهما من افضل بقاع المدينة واكرم اصقاعها ، وقد كانوا يمنعون البناء في عرصة العقيق ضناً بها ، ولم يكن لأمير المدينة أن يقطع بهما قطيعة إلا بامر الخليفة . وقد قال الرسول عليه السلام في هذا الوادي : « يا عائشة جئنا من العقيق ، فما ألين موطئه ، وأعذب ماءه » . وقال سلمة بن الاكوع : كنت أصيد الوحش، وأهدي لحومها إلى رسول الله ﷺ ففقدني ، فقال : يا سلمة أين كنت تصيد الوحش

فقلت : يا رسول الله ، تباعد الصيد ، فأنا أصيد بصدور قناة نحو ثيب ، فقال : لو كنت تصيد بالعقيق لشيّعتك إذا خرجت وتلقيتك إذا جئت ؛ إني أحب العقيق .

وهذا الوادي يطوف بالمدينة من جهة الجنوب والغرب والشمال ولكنه بعيد عنها .

تاريخها وعناصر السكان بها قبل الاسلام :

يرجع تاريخ يثرب الى ما قبل الميلاد وهي (أثريا) في الكتابة المعينية وكانت من المواضع التي سكنتها جاليات من معين ، ثم صارت الى السبئيين بعد زوال مملكة معين .. وعرفت بالمدينة من كلمة (مدينتا) الآرامية التي تعني (الحمى) أي مدينة على رأي المستشرقين . أما كلمة المدينة على أنها اختصار من مدينة رسول الله عليه السلام ، فيرون انه رأي متأخر قال به العلماء .

وفي القرآن الكريم وردت باسم يثرب تارة (واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ..) .

وباسم المدينة اكثر من مرة (وممن حولكم من الاعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) .

وقال الزجاجي : يثرب مدينة رسول الله ﷺ سميت بذلك لأن أول من سكنها يثرب بن قانية بن مهلائيل .. فلما نزلها رسول الله ﷺ سماها طيبة وطابة ، كراهية للتثريب .

وللمدينة تسعة وعشرون اسماً وقد أوصلها السمهودي إلى أكثر من تسعين اسماً ؛ ومن هذه الأسماء : طيبة ، وطابة ، ويثرب ، والعذراء ، والناجية ، والمقدسة ، والعاصمة ، والشافية ،

والقاصمة ، والمختارة . وهذه الاسماء وغيرها اطلقت عليها بعد الاسلام .

* * *

وتشير المصادر العربية إلى أن أول من سكنها قوم من الامم الماضية ، يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا في البلاد ، وكانوا أهل غزو وبغي شديد ، وكان ملك الحجاز منهم يقال له الأرقم . ثم نزلها اليهود وبقوا فيها لا ينازعهم احد ، حتى نزلت عليهم الاوس والخزرج قادمين من الجنوب بعد ما كان من سيل العرم في اليمن — موطنهم الاصلي — وخروج الازد منها كما هو مفصل في كتب التاريخ .

* * *

ويرجع نسب الأوس والخزرج إلى قحطان ، وأمهم قَيْلة بنت كاهل ؛ ولذلك يقال لهم ابنا قيلة .

وكان مع اليهود قبل نزول الاوس والخزرج عليهم بطون من العرب : منهم بنو انيف — ويقال إنهم بقية من العماليق — وبنو مريد ، وبنو معاوية ، وبنو الجذماء — وهم حي من اليمن — وبنو الشطية .

وقد كان الاوس والخزرج ومن يسكن معهم من عرب يثرب ، أهل شرك ، يعبدون الاوثان ، ولا يعرفون كتابا ، وآلهتهم « مناة » المذكورة في القرآن (ومناة الثالثة الاخرى) يعظمونها ويذبحون لها ويهدون .. ولم يكن احد اشد إعظاما لها من الاوس والخزرج وكانوا من الحُمْس ، والحمس قبائل من العرب الجاهليين ، لم تكن

نساؤهم ينسجن ولا يغزلن الشعر،ولا يسلأن السمن، إذا أحرموا. وإنما سميت الحمس حمساً للتشدد في دينهم ، فالاحمس في لغتهم المتشدد في دينه . ولهم عادات وتقاليد يلتزمون بها في عبادتهم .

أما ثقافتهم فقد روت الاخبار انه لم يكن من يقرأ ويكتب فيهم يتجاوز عدد أصابع اليد أمثال : سعيد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وابي وهب .

وقد نبغ فيهم كثير من الشعراء ، فقد عدّ صاحب جمهرة أشعار العرب أصحاب المذَهَّبات كلهم من الاوس والخزرج قال : وهن للاوس والخزرج دون غيرهم من العرب وهم : عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الجلاح ، وأبو قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرىء القيس . وذكر ابن سلام في طبقاته أن المدينة أشعر القرى العربية قال : وأشعرهن قرية المدينة ، شعراؤها الفحول الخمسة ، ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس . ومن كان شجاعاً وشاعراً وكاتبا قيل له : الكامل ، وممن حمل هذا اللقب سويد بن الصامت الأوسي .

وعندما استقر الامر للاوس والخزرج بعد تغلبهم على اليهود في يثرب ، بدأ التنازع بينهم على السلطان ، كل فريق يريد ان يكون الحكم في رجاله ، فشبت بينهم الحرب واصبحوا في نزاع دائم وقتال مستمر ، وقد حفظ التاريخ الكثير من أيامهم ، ومن هذه الايام : سمير ، وحاطب ، والسرارة ، وفارع ، والربيع ، ومعبس ، ومضرس ، وحروب أخرى مذكورة في كتب التاريخ .

وبعد هذه الحروب الطويلة استقر رأي الحيين على ان يكون الحكم بينهما بالمناوبة وجعلوا لقب الحاكم عندهم « الملـك » فيكون لهم ملك في كل عام من احد الحيين .

* * *

أما يهود يثرب فقد وردت عدة روايات عن أول سكناهم ليثرب، وخلاصة هذه الروايات : أن اليهود سكنوا يثرب فراراً من اضطهاد بختنصر في بيت المقدس ، أو لانهم وجدوا فيهـا ما نعت لهم في كتابهم المقدس عن البلد الذي سيهاجر إليه النبي ﷺ ، حرصاً منهم على اتباعه ، فقد روى أهل السير عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله : بلغني أن بني إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور (بختنصر) عليهم ، وفرقتهم ، وذلتهم؛ تفرقوا وكانوا يجدون محمداً ﷺ منعوتاً في كتابهم وانه يظهر في بعض هذه القرى العربية ، في قرية ذات نخل. ولما خرجوا من أرض الشام كانوا يعبرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن ، يجدون نعتها نعت يثرب ، فينزل بها طائفة منهم ، ويرجون ان يلقوا محمداً فيتبعونه ، حتى نزل من بني هارون ممن حمل التوراة بيثرب . ويروي البلاذري القسم الاول من هذا الخبر ، وهو المتعلق بظهور بختنصر عليهم .

بينما يروي ياقوت في معجمه نحواً من الخبرين ويفصل بينهما بقوله : قال آخرون .

ويكون اليهود في يثرب عدة قبائل . نقل رَزِين عن الشرقي أن يهود كانوا نيِّفا وعشرين قبيلة ، ذكر منهم السمهودي حين نزلت عليهم الاوس والخزرج خمس عشرة قبيلة .

وقد تهوّد قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن ، لمجاورتهم يهود قريظة والنضير وخيبر .

* * *

ولخصب أرض يثرب ووفرة مياهها ، اشتغل اليهود بالزراعة، وخاصة زراعة التمر والشعير . كما قام بعضهم بالصناعة ، وخاصة الصياغة كبني قينقاع . وعرف آخرون بالحدادة ، فكانوا يصنعون أدوات الزراعة ، كما صنعوا الدروع والسيوف . وتعاطوا التجارة والإقراض كذلك ، فكانوا يتاجرون بين الشام والحجاز ، وذكروا أن الرسول عليه الصلاة والسلام رهن درعاً بالمدينة عند يهودي لحاجته إلى شعير أخذه لأهله .

وقد اثرى اليهود من هذه التجارة حتى إن سبع قوافل وافت من بصرى واذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد ، فيها أنواع من البز ، وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر .

* * *

وتتحدث اغلب المصادر العربية بأن اليهود ظلوا سادة المدينة حتى نزلها الاوس والخزرج فوجدوا الاموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم ، فعاشوا بجانبهم وكانوا أول حياتهم معهم في ضنك وضيق .

حتى وصل الامر الى ان يؤدوا لليهود الضرائب ، قال شاعرهم :

نؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج بني قريظة والنضير

وتضيف هذه المصادر أن الاوضاع في المدينة استمرت في صالح اليهود إلى أن استعانت الأوس والخزرج بإخوانهم من عرب الشام على يهود يثرب ، فأقبل أبو جبيلة في جمع كثير لنصرة الأوس والخزرج وبذلك اختل ميزان القوى في يثرب ، وأنزل اليهود عن مكان السيادة الذي كان لهم .

* * *

أما ثقافة اليهود ، فقد ذكر أن بعضهم كان يعرف الكتابة العربية وأن يهوديا كان يعلم الصبيان الكتابة .

وكانوا يتقنون العبرانية ، والسريانية ، وربما تكلموا بها فيما بينهم ، فقد ورد أن زيد بن ثابت تعلم على عهد الرسول ﷺ الكتابة العبرانية والسريانية بالمدينة من أهل الالسن .

وظهر بينهم كثير من الشعراء ، كالربيع بن أبي الحقيق، وكعب ابن الأشرف وغيرهما .

ويظن أنه كان في المدينة بعض النصارى ، وإليهم يشير حسان ابن ثابت في رثائه للرسول ﷺ ــ إن صح أنه له ــ إذ يقول :

فرحت نصارى يثرب ويهودها
لما توارى في الضريح الملحد

وقد كان تجار الشام النصارى يدعون إلى دينهم في يثرب ، وليس فيها من يمنعهم ، أو يقلقهم في دعوتهم .

وقد تأثر البعض من أبناء يثرب بهذه الدعوة فتنصروا ، فالآية (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ؛ روي أنها

نزلت في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا أو تنصروا قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء ، وارادوا إكراه الأولاد على الدين ، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام .

وذكر السُدّي عن آية انها نزلت في رجل من نصارى المدينة . ويظهر ان هؤلاء النصارى كانوا يتقنون اللغة الرومية والقبطية والحبشية ومنهم تعلم زيد بن ثابت هذه اللغات على عهد رسول الله ﷺ بالمدينة .

* * *

هؤلاء هم سكان المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ ، وكان الجو فيها مشحوناً بالفتن ، مليئاً بالخصومات ، سواء كانت بين العرب انفسهم أو بينهم وبين اليهود ، وآخر ما كان من هذه الخصومات والحروب قبل الهجرة ما حصل بين الأوس والخزرج من حرب طاحنة دعيت بيوم بعاث ، وقد وصل الخصام في هذا اليوم إلى درجة فكر فيها كل فريق باستئصال الفريق الآخر ، وإبادة خضرائه، لولا تدخل بعض العقلاء منهم ، ونصيحتهم لهم بأن يبقوا على أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب ــ يعني اليهود ــ .

وقد كان لهذا اليوم أكبر الأثر في تمهيد الطريق امام الإسلام في يثرب ، فقد قالت السيدة عائشة : كان يوم بعاث يوماً قدّمه الله عز وجل لرسوله ﷺ فقَدِم رسول الله المدينة وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم في دخولهم في الإسلام .

المدينة بعد الهجرة :

كانت يثرب كما رأينا مسرحاً للنزاع الدائم ، والتنافس المستمر بين العرب واليهود ، وبين العرب أنفسهم ، وبين اليهود أنفسهم أيضاً . هذه الحالة المضطربة مع ما كان من توعد اليهود لعرب يثرب وتهديدهم لهم كلما حاربوهم بأن نبياً سيبعث ، وأنهم سيتبعونه ويقتلون العرب قتل عاد وإرم ؛ وتمنى العرب لو سبقوا اليهود إليه ، فآمنوا به واتبعوه . كل ذلك جعل نفوس العرب في يثرب تستشرف لرؤية ذلك النبي المبعوث والإيمان به ، لعلهم يستنصرون به على اليهود ، ويعيد لبلدهم الطمأنينة والسلام ،ويكون علاجاً للفوضى التي كان يقاسي منها المجتمع ، سواء في الأمن والاستقرار أو في الحالة الاجتماعية المتدهورة .

ولم يطل بهؤلاء الانتظار إذ سرعان ما قابلوا رسول الله ﷺ ، فبينما كان الرسول يعرض نفسه على القبائل القادمة إلى مكة في موسم الحج ، رآه رهط من الخزرج ، فلما دعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن وجدوا أمارات الصدق بادية عليه، وعلموا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود. فآمنوا به وصدقوه وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ؛ فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة . وكان هؤلاء النفر طليعة الدعاية الموفقة للاسلام في يثرب ، وقد أثمرت جهودهم في الدعوة إلى الإسلام فوصل صوته إلى كل دار ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .

وما أن وافى موسم الحج المقبل حتى توجه من المدينة اثنا عشر رجلاً من الأنصار ، ولقيهم الرسول عليه السلام عند العقبة ، وعقد معهم بيعة الإيمان بالله ، وكانت في السنة الثانية عشرة من البعثة ، فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة .

وقد انتشر الإسلام في المدينة على يدي مصعب ومن آمن من الأنصار انتشاراً واسعاً ، وما كاد العام الثاني ينتهي حتى توجه مصعب إلى رسول الله بمكة يبشره بما لقي الإسلام من قبول حسن في يثرب ، وبأنّ وفوداً من المسلمين ستوافيه في ذلك الموسم في العقبة . ووصلت هذه الوفود في موعدها المحدد ، وكانت مؤلفة من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين ، وبايعته على الإيمان به والنصرة ، وبعد هذه البيعة نجح الإسلام في تأسيس وطن له ، فتنادى المسلمون من كل مكان بالتوجه إلى يثرب لإقامة المجتمع الجديد ، الذي ترفرف عليه راية التوحيد ، فوصلوا إليها زرافات ووحداناً . ثم تبعهم الرسول عليه السلام بعد أن أذن الله له بالهجرة ، فاستقبله المسلمون أروع استقبال ، قال البراء : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله ﷺ ، وخرج الغلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله ﷺ ، فرحاً به ، وخرجت الوفود تتنافس في الترحيب به ودعوته إلى النزول عندهم ، فبنو عوف يقولون : يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة ، وبنو بَيَاضة يذكرون له ذلك عندما يمر بهم ، وبنو ساعدة يبدون نفس الرغبة . وعندما وصل إلى دور بني عدي بن النجار قالوا له : نحن أخوالك ، هلمّ إلى العدة والمنعة والعزة مع القرابة، لاتجاوزنا إلى غيرنا يارسول

الله . ورسول الله ﷺ يبتسم للجميع ويقول : اتركوها ـ أي الناقة ـ فإنها مأمورة . حتى بركت حيث شاء لها الله أن تبرك .

ولم يكن النبي ﷺ غريباً عن يثرب ، فهي بلد أخوال جده بني النجار ، وفيها مثوى أبيه وذكريات وفاة أمه ، هذا فضلاً عما صار له فيها من أنصار ومؤيدين بانتشار الإسلام فيها قبل الهجرة .

وكان أول ما عني به الرسول عليه السلام بعد وصوله إلى يثرب أن بنى مسجداً للمسلمين ، ليكون مقاماً يصلون به ، ومجمعاً عاماً لأصحابه الذين كانوا حتى وصوله يجتمعون في البيوت للصلاة والتدارس .

وبعد أن أتم بناء المسجد التفت إلى بناء المجتمع ، فراح يرسي نظاماً للحياة العامة في المدينة ، يكون أساساً لتحقيق الوحدة بين سكانها الذين فرقتهم الحروب ومزقت وحدتهم الخلافات ، وكانت بداية هذا النظام مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار لإيجاد نظام تعاوني عملي ، تمحي فيه كلمة أنا ، ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها فلا يرى كياناً دونها ، ومعنى هذا أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للاسلام ولا تمايز إلا بالتقوى ، (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وكانت مؤاخاة وثيقة بلغت حد التوارث بين المتآخين دون ذوي الرحم ، وتجلت فيها أسمى عواطف الإيثار ومشاعر المواساة ، فقد قدم عبد الرحمن بن عوف ، فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، وعند الأنصاري امرأتان ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن : بارك الله لك

في أهلك ومالك ، دلوني على السوق ، فأتى السوق فربح شيئاً من أقط(١) ، وشيئاً من سمن .

وقد حاول الرسول أن يؤكد التراحم والتعاطف في تلك الفترة ؛ فمما جاء في أول خطبة له في الإسلام في صلاة الجمعة : (فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة) .

وبعد أن وثق الرسول عليه السلام بين أفراد الأمة الاسلامية الواحدة داخل المدينة ، التفت إلى المرحلة الثانية وهي تنظيم صلة الأمة بمن لا يدين بدينها من أفراد المجتمع ، فقد وجد في المدينة يهوداً متوطنين ومشركين مستقرين ، فلم يحاربهم أو يخاصمهم أو يطلب منهم الجلاء ، وإنما قبل وجودهم عن طيب خاطر ، وعرض عليهم معاهدة الند للند ، وعقد معهم هذه المعاهدة ، على أن لهم دينهم وله دينه ، والوثيقة التي سجلت ذلك تعد أكبر تعبير عن رغبة الرسول المخلصة في التعاون بين المسلمين ويهود المدينة لنشر السكينة والضرب على أيدي العادين،ومثيري الفتن أياً كان دينهم ،مع المحافظة على حرية الدين، وحرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها،والسكن فيها لمن يحفظ حرمتها ، وقد اتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو ، وقد وادع الرسول مشركي المدينة مثل موادعة اليهود(٢) .

---

(١) أقط : شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل ثم يجمد .

(٢) انظر نص الوثيقة في ابن هشام ٥١/١ ومجموعة الوثائق السياسية ص ١٥ وفيها المصادر .

وبعد أن أصبح المسلمون في قوة وعدة في المدينة فرض الله عليهم القتال فشهدت المدينة خروج النبي عليه السلام مع أصحابه في غزواته .

وكانت أولى هـذه الغزوات غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون ، وكانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، ثم توالت غزواته حتى بلغت سبعاً وعشرين غزوة . وشهدت المدينة أيضاً خروج السرايا إلى مختلف الجهات وبلغ عددها ثمان وثلاثين من بين بَعْث وسرية .

وقد توج نصر المدينة بفتح مكة في العام الثامن الهجري، وبذلك تم الفتح المبين للاسلام ، فقُضي على عبادة الأوثان ، ورفعت راية التوحيد خفاقة فوق القبائل العربية كلها ، ولأول مرة في التاريخ . وإنما كانت العرب تربَّص بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش ، فدخل العرب في دين الله أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولذلك تسمى سنة الوفود .

وقد ساهم الشعر في هذه المعارك بدور كبير ، فما أن بدأ الإسلام يقوى وأتباعه يكثرون حتى انطلق المشركون يغرون شعراءهم بالنبي ودعوته وبدأت شاعرية قريش تستيقظ بعد أن كانت قليلة الشعر في جاهليتها خاملة الذكر فيه . قال ابن سلام : والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة(١) ولم يحاربوا .

فان عداوتها للاسلام حلت من عقد ألسنة أبنائها ، ومحاربتها له أنطقهم بالشعر ، فبرز منهم شعراء لم يعرفوا بالشعر قبل الاسلام

(١) النائرة : الحقد والعداوة تقع بين القوم ، فتثير شعورهم .

كأبي سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبي وهب . وقد روت كتب التاريخ والسيرة الكثير من أشعارهم التي كانوا يهجون بها الرسول والدين ، وينالون منه عليه السلام ومن أتباعه ودعوته أشد النيل وأقساه .

وكان لذلك أثره في نفس الرسول ، وفي نفوس المسلمين ، وفي تعويق الدعوة والتنفير منها ، لما كان للشعر من ذيوع وانتشار بين جميع القبائل العربية ، ولم تكن القبائل خارج المدينة لتسمع عن الإسلام أو تعرف عنه شيئاً إلا بواسطة ما يصل إليها من الشعر الذي كان بمثابة صحف هذه الأيام ؛ هذا إذا استثنينا بعض من كان يبعث بهم الرسول عليه الصلاة والسلام من دعاة الإسلام ، وحتى هؤلاء فإن شعر القرشيين كان يفسد عليهم عملهم ودعوتهم ، لأنه صادر من مكة ، وهي مركز العرب الديني والتجاري والثقافي ، وعن قوم النبي ، والمفروض أنهم أعرف به وبدعوته من القبائل . لذلك اتجهت الدعوة الإسلامية لتفلّ من هذا السلاح الذي حاول المشركون أن يتخذوا منه سلاحاً ماضياً يشهرونه في وجه الدعوة الإسلامية ، ويهدمون به كل ما يحاول أن يبنيه الرسول ، لتفوت على المشركين غرضهم الذي كانوا يرمون إليه، وتوجهه إلى غير ما استعمله المشركون ؛ فحمل القرآن على الشعراء حملة واسعة ، ووصفهم بنعوت قاسية ، ووصمهم بما لا يرضاه كل عربي لنفسه من أنهم يقولون مالايفعلون ، ولكنه استثنى منهم الشعراء المؤمنين :

(والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون مالايفعلون . إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا . . .) .

وجاء الحديث النبوي يؤكد موقف القرآن ، ففرق بين شعراء الكفر وشعراء الإيمان : (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلىء شعراً) ولكن السيدة عائشة رفضت هذه الرواية ، وارتاعت لها عندما سمعتها ، وقالت :

(لم يحفظ أبو هريرة الحديث ، إنما قال رسول الله ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلىء شعراً هُجيت به)(١) .

ومن هذا الاستدراك يتضح جلياً موقف الرسول عليه السلام من الشعر ، فقد نهى عن لون معين منه ، وموضوعات خاصة ، لا تتعدى هجاءه الذي يعني هجاء الدعوة . ومن الطبيعي ان ينصرف عن شعر العصبية ، والمفاخرات ، والهجاء الذي يؤذي النفوس ، ويبعث الضغائن بين المسلمين ، وعن الشعر الماجن الذي لا يتفق والفضائل النفسية ، ويعين على الرذائل ، فكل هذه الألوان من الشعر تخالف المبادىء التي قرر الإسلام ان تكون اسس مجتمعه الجديد .

أما فيما عدا ذلك فإن الرسول أقرّ الشعر ، وطلب من الشعراء أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم . ولما لم يكن بين المهاجرين من يستطيع أن يتصدى لهذه المهمة توجه إلى الأنصار بقوله :

ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فأجابه إلى ذلك حسان وكعب وعبد الله بن رواحة ،

---

(١) الزركشي : الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٦٧ .

فانشرح صدر رسول الله لذلك. وطلب أن يردوا عنه شعراء قريش، فقد روي انه لما قدم تناولته قريش بالهجاء فقال لعبد الله بن رواحة: « رد عني » ، فذهب في قديمهم وأولهم ، فلم يصنع في الهجاء شيئاً ، فأمر كعب بن مالك فذكر الحرب كقوله :

تَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرنَ بخَطْونا
قُدماً ونُلحقها إذا لم تَلحَقِ

فلم يصنع في الهجاء شيئاً ، فدعا حسان بن ثابت فقال : اهجهم وائت أبا بكر يخبرك ـ أي بمعائب القوم ـ وكان أبو بكر علاّمة قريش بانسابها .

وقد اثنى ﷺ على شعراء الإسلام وقدّر دورهم في محاربة الكفر فقال : هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل . وقال لحسان : لشعرك اجزل عند قريش من سبعين رجلاً مقاتلة ولشعر كعب بن مالك أشد على قريش من رشق السهام .

وادرك عليه السلام أثر الشعر في نفس العربي فحث شعراءه على هجاء الكافرين ليشفي صدور المسلمين ، ولئلا يبقى ذلك في قلوبهم . فلما انهزم المشركون يوم الأحزاب ، قال رسول الله ﷺ : إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزوهم ، وتسمعون منهم أذى ، ويهجونكم ، فمن يحمي أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحة فقال : أنا ، فقال : إنك لحسن الشعر ، ثم قام كعب بن مالك فقال : أنا ، فقال : وإنك لحسن الشعر .

وهكذا وقف شعراء الإسلام يذبون عن دينهم سهام أشعار المشركين وأذاهم ، ولم يقتصروا على ذلك ، بل ولجوا بشعرهم كل ميدان وجدوا فيه دفاعاً عن عقيدتهم ، ونشراً لدينهم ، فمدحوا من

أسلم أو وقف إلى جانب الإسلام ، وفخروا بالإسلام وبالرسول ، وبالانتصارات الإسلامية ، ورَثَوا قتلى المسلمين ، وبينوا ثوابهم وحسن مآبهم .

وكان الرسول يقدر قيمة الشعر في غير هذا الميدان أيضاً ، ويعرف مهمته في الحياة العربية وانه ديوان العرب، وسجل مفاخرها، فحاول أن يوجه هذه الاداة التي يحسن العرب استعمالها ولا يستطيعون الاستغناء عنها ، إلى حيث يخدم الفكرة ، وينصر الدين ، ويبعث الفضائل الكامنة في نفوس العرب فقال : إن هذا الشعر سجع من كلام العرب ، به يعطى السائل ، وبه يكظم الغيظ ، وبه يؤتى القوم في ناديهم .

وما تمت السنة العاشرة للهجرة حتى روع المسلمين نبأ انتقال الرسول عليه السلام إلى الملأ الأعلى ، فعمهم الحزن ولفهم الأسى ، ولم يشأ المسلمون أن يصدقوا هذا الخبر حتى قيل أن عمر وقف رافعاً سيفه ، مهدداً بالقتل من يقول به . إلى أن أعاد إليهم أبو بكر صوابهم ، وهدأ من روعهم حين قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لايموت . وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . » ؟!

ظهور المنافقين :

خلال الفترة الواقعة بين الهجرة ووفاة الرسول عليه السلام بدت في المجتمع الإسلامي ظاهرة جديدة أطلق عليها (النفاق) ؛ وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، والمنافق هو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه . وقد ورد النفاق وما تصرف منه في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية .

وفي القرآن الكريم ، والسور المدنية بصورة خاصة ، تفصيل لاخبار المنافقين وكشف لعوارهم ، وكان هؤلاء قلة في بدء الاسلام ، ففي مكة لم يكن احد يحتاج إلى النفاق ، بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه عن كثير من الناس .

ولم يكثر المنافقون إلا بعد أن قوي الإسلام في المدينة ، فاضطر البعض إلى إظهار الإسلام وإبطان خلافه ؛ لضعف نفوسهم ، أو لسوء قصدهم والعمل على هدم الدين أو لحسد النبي ورجاله المؤمنين ، وقد لعب اليهود دوراً كبيراً في ظهور ومعاضدة حركة النفاق ليستعينوا بها على عرقلة سير الدعوة ، وتقويض صرح الدولة الإسلامية ، فإن رؤساءهم كانوا يقولون لأتباعهم من اليهود : اذهبوا فقولوا آمنا ، واكفروا إذا رجعتم . فكانوا يأتون المدينة بالبكر ، ويرجعون إليهم في العصر ، وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره ، فإذا رجعوا ، رجعوا إلى الكفر .

ولم يكن امر هؤلاء يخفى على الرسول والمسلمين ، وإن مواقفهم كثيراً ما كشفها القرآن وتحدث عنها الرسول عليه السلام تلميحاً أو تصريحاً .

واتخذ المنافقون مواقف أتعبت الرسول عليه السلام ، وآذت الاسلام وخاصة في بدايته ، فقد تعاونوا مع اليهود والمشركين في المدينة ، وتخلفوا عن نصرة المسلمين في كثير من مواقفهم الحرجة وغزواتهم ضد المشركين ، كأحد والاحزاب .

وكان لهذا التخلف أثر كبير في بلبلة أفكار المسلمين وإثارة الرعب في قلوب الكثير منهم .

وأكثر المنافقون من الكيد للاسلام ونبيه ، حتى لقد همـوا بقتله عليه السلام وهو في طريق عودته من تبوك واستهزؤوا بالرسول وحاولوا النيل منه ، فأنزل تعالى قرآناً في ذلك : (ومنهم من يلمزك في الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) .

ونشروا الإشاعات المغرضة ، وأشاعوا الأراجيف الباطلة ، وألصقوا التهم الملفقة بأزواج النبي ونساء المؤمنين ، وقد عملـوا ما استطاعوا على التفريق بين المسلمين ، اقتتل رجلان من المسلمين فظهر الغفاري على الجهني، فنادى عبد الله بن أبيّ : يابني الخزرج، انصروا أخاكم ، فوالله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك ؛ فوالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

واستهزؤوا بكبار الصحابة، فقد خرج عبد الله بن أبيّ وأصحابه ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن أبيّ : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم . فذهب واخذ بيـد أبي بكر فقال : مرحباً بالصديق سيد بني تيـم ، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار ، الباذل نفسه وماله ، ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحباً سيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله ، والباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد علي فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وختنه ، سيد بني هاشم ما خلا رسول الله ، ثم افترقوا ، فقال عبد الله لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت ؟ فإذا رأيتموني فافعلوا كما فعلت ، فأثنوا عليه خيراً . فرجع المسلمون إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واخبروه في ذلك ، فأنزل تعالى :

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون) .

وقد أجمع المؤرخون على أن رأس النفاق في المدينة عبد الله ابن أبي بن سلول ، وقد اسلم هذا بعد أن رأى اجماع قومه على الإسلام حتى ابنه ، ولكن اسلامه كان خداعا فقد بقي على نفاقه حتى هلك .

وقد نال ابن أبي من الإسلام والرسول نيلاً شديداً ؛ لما له من منزلة لدى أهل المدينة ، إذ كان من أشرافها ، بل من أعظم أهلها ؛ وكان مرشحاً لأن يكون ملكاً عليهم ، لولا دخولهم في الإسلام .

وقد اظهر ابن أبي حقده وعداءه للرسول من أول يوم وصل فيه الرسول عليه السلام إلى المدينة ، وقد بلغ الأمر به أن يخرق كل ما تعارف عليه العرب من أصول المجاملة ، وما عرف عنهم من كرم الخلق وحسن الضيافة ، فعندما همّ الرسول أن يزوره ـ وهو مارٌ من أمام بيته ـ قال له بكل وقاحة : اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم .

ومن هؤلاء المنافقين نبتل ، الذي قال الرسول في وصفه : من أحب أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحارث . كان يجلس الى النبي ويسمع حديثه ، وينقله الى المنافقين ، وهو الذي قال لهم : إنما محمد أذن ، من حدثه شيئاً صدقه ، وقد أنزل الله فيه : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُن ، قل : هو أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب شديد) .

ومن هؤلاء المنافقين كثير مـن أحبار اليهود ، الذين دخلوا الإسلام نفاقاً ، مثل زيد بن اللصيت الذي قال حين ضلت ناقـة الرسول عليه السلام : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهـو لا يدري أين ناقته ، ورافع بن حريملة الذي قال عنه الرسول حين مات : (قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين) .

ومع كل المواقف العدائية التي اتخذها المنافقون إزاء الإسلام فان الرسول عليه السلام كان يسلك معهم طريق الملاينة حينا ، والإغضاء حيناً آخر . يقبل من مقصريهم الأعذار وهو عارف ببطلانها تكرماً عن فضحهم ، فإذا ظهرت من أحدهم خيانة توجب هدر دمه ، وطلب المسلمون ذلك ، رغب في التجاوز عنه قائلاً : إني أكره أن يتحدث العرب أن محمداً وضع يده في أصحابه يقتلهم .

وكان آخر ماتفتقت عنه أذهان المنافقين في محاربة الله ورسوله، مسجد الضرار الـذي بنوه ليكون معقلاً لمن حارب الله ورسوله ، وليمكروا فيه بالاسلام تحت ستار التجمع على العبادة ، وللتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ــ قباء ــ فنزلت الآيات تفضحهم (الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنـا الا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) .

فتحرّج موقف المنافقين ، وانكشفت خباياهم ، وتمزقت الأستار التي كانوا يتوارون خلفها ، فأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام اثنين من أصحابه ، وقال لهما : انطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه . . . فانطلقا اليـه يشتدان حتى دخلا وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه . وفرّ من فيه مـن المنافقين

مذعورين ، فأتى اللهبُ على آخر ما شاد النفاق ، واوج ما توصل اليه المنافقون من تآمر ، وبذلك انتهى أمر النفاق في المدينة ، ولم يجرؤ بعد هذه الحادثة أن يخرج أحد منهم رأسه .

موقف اليهود بعد الهجرة :

أراد الرسول ﷺ أن يوحد بين قلوب أهل المدينة ، بما فيهم اليهود ، فعاملهم أحسن المعاملة ، وهادنهم ووادعهم على غير جزية ، مع اقراره لهم ولمن حول المدينة من المشركين من حلفاء الانصار على حلفهم وعهدهم الذي كانوا عليه ، وعاهد اليهود على ان يعينوه إن حارب الوثنية لتدعيم عقيدة التوحيد . وكان يأمل أن يصدّق اليهود بالإسلام فيما يثبته لله من تنزيه ومجد ، وأن تكون صلتهم بالكتب المقدسة ، وألفتهم لاحاديث المرسلين سبباً في إقناع العرب الأميين بأن الرسالات السماوية حق ، وأن الإيمان بها واجب . وكان أمله هذا متمشياً مع ما جاء يؤكده القرآن الكريم في قوله : (ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومَنْ عنده علم الكتاب) .

وقام الرسول عليه السلام بعدة اعمال برهن فيها على حسن نواياه تجاه هؤلاء اليهود ومن هذه الأعمال : صلاته نحو قبلتهم بيت المقدس ، وأحلّ للمسلمين ما أحل لليهود أكله ، والتزوج من بناتهم (اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ...) وصام المسلمون بعض أيام كان اليهود يصومونها كيوم عاشوراء . وعقد معهم الكثير من العقود والعهود ، وأهمها الوثيقة المشهورة التي استغرق ما جاء فيها عن اليهود ما يقارب نصفها .

ولكن اليهود لم يرضهم كل هذا وأَبَوا إلا أن يدخلوا مع الرسول في نزاع ، اتخذ في أول الأمر شكل مناقشة دينية ، ثم تطور إلى محاولات لتعجيز الرسول ، قال رافع بن حريملة ـ وهو من يهود يثرب ـ لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه .

واستمروا يسألونه ويتعنتونه : (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألاّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ...) وجرّوا المسلمين إلى مجادلات أدت بهم إلى التراشق بالألفاظ والأيدي في شوارع المدينة . واضطرت أبا بكر وهو الحليم أن يضرب وجه فِنحاص اليهودي ضرباً شديداً ويقول له : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم ، لضربت راسك ، اي عدو الله . حتى نهى الله المسلمين عن ذلك (وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) .

ولم يكتف اليهود بمجادلاتهم هذه ، وإنما راحوا يشنون على شخص الرسول الكريم حملة مسمومة من الاكاذيب والافتراءات ونعتوه بأنواع من النعوت اللئيمة الظالمة ، واستغلوا كلمة يرددها الأنصار وهي (راعنا) وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها ، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي ﷺ أعجبهم ذلك ، وكان « راعنا » في كلام اليهود سباً قبيحاً ، فقالوا : إنا كنا نسبّ محمداً سراً ،

فالآن اعلنوا السب لمحمد فإنه من كلامه . فكانوا يأتون النبي عليه السلام فيقولون : يا محمد راعنا ، ويضحكون ؛ ففطن إليها من الأنصار سعد بن عبادة ، وكان عارفاً بلغتهم وقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذي نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه ، فقالوا : ألستم تقولونها ؟ فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ، وقولوا انظرنا) .

ولما حولت القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة ، استغلوا ذلك أبشع استغلال ، وراحوا يطعنون في رسول الله ﷺ ويكذبونه ، لأنهم كانوا يعرفون من كتبهم أن النبي الذي يبعث من ولد إسماعيل يكون على قبلته وهي الكعبة ، فجعل بيت المقدس قبلة دائمة له ، حجة على أنه ليس هو النبي المبشّر به . فلما كان التحويل ، عرفوا انه الحق من ربه .

وقد اسمعوا الرسول عليه السلام كلمات جارحة مؤذية ؛ استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا : السام عليك . فقالت عائشة : السام عليكم واللعنة . قال : يا عائشة إن الله عز وجل رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله. قالت : ألم تسمع ما قالوا؟ قال : فقد قلت : وعليكم .

وتآمروا على تشكيك المسلمين ، فتواطأ اثنا عشر حبراً من يهود ، وقال بعضهم لبعض : ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد ، واكفروا به آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا ، فوجدنا محمداً ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه ، وبطلان دينه ، فإذا فعلتم ذلك يشك أصحابه في دينهم ،

وقالوا : إنهم أهل كتاب ، وهم أعلم به منا ، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم .

ولم يقف بهم الأمر عند المدينة بل راحوا يحرضون كل من أمكنهم الاتصال به من اليهود محذرين إياهم من الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فقد كتبوا إلى يهود العراق واليمن ، ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها ، أن محمداً ليس بنبي الله ، فاثبتوا على دينكم ، واجمعوا كلمتكم على ذلك ، فاجمعت كلمتهم على الكفر بمحمد ﷺ والقرآن ، ففرحوا بذلك وقالوا : الحمد لله الذي جمع كلمتنا ولم نتفرق ولم نترك ديننا .

أما من أسلم منهم ـ على قلتهم(١) ـ فإنهم شنوا عليهم حملة ظالمة ، فعمدوا الى مؤمنهم عبد الله بن سلام وأصحابه ، فآذوهم لإسلامهم وقالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إليه . وقالوا لهم : لقد خنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره .

وتمادى اليهود في تحرشهم إلى أن نفد صبر الرسول حين اراد اليهود أن يجعلوا من المسلمين اضحوكة لهم، فقد قدمت امرأة مسلمة بجَلَب لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ لها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا

---

(١) يظهر أن من آمن منهم بالاسلام لم يصل عددهم إلى العشرة في زمن الرسول فقد قال النبي ﷺ : (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن اليهود) انظر البخاري ٨٩/٥ .

منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . وبذلك نقض بنو قينقاع العهد الذي عقدوه مع المسلمين ، فقرر الرسول عليه الصلاة والسلام توجيه الإنذار النهائي لهم ، وبدأ ببني قينقاع ، الذين بدأوا نقض العهد وإهانة المرأة المسلمة كما رأينا . فجمعهم في سوقهم وخاطبهم : يا معشر يهود،أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً . ولم يستجب اليهود لهذه الرغبة المخلصة ولم يؤمنوا بما أمرهم به دينهم ، بل أجابوا بكل وقاحة وتحد : يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وإنك لم تلق مثلنا . وعندما وصل الأمر إلى هذه المرحلة حاصرهم الرسول خمس عشرة ليلة ، حتى نزلوا على حكمه ثم أجلاهم عن المدينة ، فخرجوا منها إلى أذرعات بالشام .

وبعد جلاء بني قينقاع عن المدينة ضعفت شوكة اليهود فيها ، ومع ذلك لم يكفوا عن تآمرهم فقد اتفق أن خرج الرسول عليه السلام إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر ، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، للجوار الذي كان رسول الله عقد لهما .. فلما أتاهم رسول الله يستعينهم في دية ذينك القتيلين ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمَنْ رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة

فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش أحدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة ؛ فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة .. وأمر النبي بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم .. ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال وقد طلب بنو النضير من بني قريظة أن ينجدوهم ، فلم يفعلوا ، وصرح كعب بن أسد ، زعيم بني قريظة أنه لا يريد أن ينقض حلفه مع الأنصار .

وعند ذلك سألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يجليهم ويكف عن دمائهم ففعل ، وخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام بأذرعات . فكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها .. وقد سمح لهم الرسول أن يأخذوا معهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلَقة وهي السلاح . وقد فرح اليهود بهذا الحل إذ أمنوا من القتل . ويروى أن نساءهم حين جلوا عن المدينة تحلين بحليهن ، وتزيئن أحسن زينة ، حتى بدت الواحدة منهن غاية في الجمال . أما الرجال فقد أظهروا التجلّد والصبر حتى لا يشمت بهم المسلمون .

ولكن هل تغير موقف اليهود بعد هذه المعاملة الكريمة التي وجدوها من لـدن رسول الله ؟ كلا إن هؤلاء الذين ذهبوا طلقاء ، وحملوا معهم كل ما خف وزنه وغلا ثمنه بدأوا يفكرون بتآمر جديد على المسلمين فور وصولهم إلى خيبر ، وراحوا يحرضون المشركين من قريش وغيرها ويهود خيبر ، إذ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ،إنكم اهل الكتاب

الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . . . فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله عليه السلام، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله واخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه . وقد أشار تعالى إلى تآمر اليهود هذا مع المشركين بقوله : (ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

وكانت غزوة الخندق الشهيرة في السنة الخامسة للهجرة ، وسميت بالأحزاب لتحزب اليهود مع قريش وغطفان على الاسلام ، فانضم بنو قريظة إلى جيوش الأحزاب بتأثير من حيي بن اخطب زعيم بني النضير .. ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول عليه السلام ، فكان ما كان من يوم الأحزاب كما هو مفصل في كتب التاريخ(١) .

ولقي اليهود بعد هذه الغزوة جزاء ما أقدموا عليه من خيانة وتعنت وتحالف مع الشرك ؛ فأجليت قبائلهم الرئيسية وهي بنو قينقاع ، وبنو النضير، عن المدينة ، وقضي على بني قريظة . ولا نعلم عن مصير بقية قبائلهم شيئاً ، فقد اغفلت المصادر ذلك ، ولعلهم قد أسلموا ، وبذلك انتهى نفوذهم السياسي والاقتصادي فيها .

---

(١) انظر الواقدي /٢٩٠ ، وابن هشام ١/٢١٤ ــ ٢٣٣ .

المدينة في عصر الخلفاء الراشدين :

كانت وفاة الرسول عليه السلام مثاراً لمسألة من يخلفه في خلافة المسلمين ، وكادت الفتنة أن تستيقظ بين المسلمين بعد أن نامت طويلا ، لولا أن تدارك المخلصون الأمر ، وعملوا على جمع كلمة المسلمين بمبايعة أبي بكر رضي الله عنه . ولم يكد ينتشر خبر وفاة الرسول عليه السلام خارج المدينة حتى ارتدت بعض القبائل العربية التي لم تكن قد تأثرت بعد بالإسلام وظهر متنبئون أدعياء . وهكذا أخذت المدينـــة على عاتقها من جديد محاربة القبائل المرتدة كما حاربتها كافرة من قبل ، واستطاع الصدّيق أن يجهز لهذه الأخطار الجيوش ، ويعيد للإسلام عزته ، ولعاصمته المدينة مكانتها التي كانت في عهد الرسول . وتولى بعد الصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد كانت خلافته ذات قيمة عظيمة للاسلام لما عرف عنه من حزم وعدل وشدة في الحق وتقديس للواجب ، وقـــد واصل المسلمون في عهده فتوحاتهم التي بدأت في عصر الصديق ، أما في الميدان الداخلي فقد تقدمت المدينة في عهده أشواطا بعيدة بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها ، وبما درّت عليهـــا الفتوحات من مكاسب مادية ومعنوية . ولكن يدا اثيمة لم تمهله ليكمل ما بدأ به ، فطعنه أبو لؤلؤة المجوسي بينما كان قائما لصلاة الصبح . وقبيل وفاته عهد إلى ستة من أصحاب رسول الله ﷺ فانتخبوا من بينهم عثمان بن عفان رضي الله عنه . وفي خلافته استمرت الفتوحـــات وكثر الخراج وأتاه المال من كل وجه ، حتى اتخذ له الخزائن وأدر الأرزاق .

وفي اواخر خلافته بدات الفتنة التي قتل رضي الله عنه فيها وتولى كبر ذلك عبد الله بن سبأ ، وعظم المتآمرون على عثمان ، ونالوا منه اقبح ما نيل من أحد ، فحاصروه في داره عدة أيام ، حتى وثب عليه عدة أشخاص ممن تزعموا الثورة فقتلوه ، وهو يقرأ القرآن في داره ، ولم يمنعهم من ذلك كبر سنه ، ولا حرمة القرآن في حجره وكان ذلك سنة ٣٥هـ .

وابى الثائرون أن يدفن في البقيع ، ووصل الحقد بهم إلى أن يتجرا احدهم ويقترح دفنه بدير سلع ، وهي مقبرة لليهود . ولم يجرؤ على حضور جنازته من المسلمين غير علي ، وطلحة ، وزيد بن ثابت ، وكعب بن مالك . وخشي الناس من دفنه نهاراً وكانوا يقولون: لا نقدر ان نخرج به نهاراً . وقد اثار مقتله الخواطر ، وحز في نفوس صحابة رسول الله عليه السلام ؛ قال قيس بن سعد بن عبادة : سمعت علياً يوم الجمل يقول : اللهم إني ابرا إليك من دم عثمان ، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان ، وأنكرت نفسي . وعن ابن عباس انه قال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء واضطرب الأمن بعد مقتله في المدينة ، ولم يجرؤ أحد من المسلمين أن يتولى الأمر فيها لمدة خمسة أيام .

فقد روي أن المدينة بقيت خمسة أيام والغافقي أمير المصريين ومن معه يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه ،ووجدوا طلحة في حائط له ووجدوا سعداً والزبير قد خرجا من المدينة ، ووجدوا بني امية قد هربوا ، واتى المصريون علياً فباعدهم ، وكذلك اتى الكوفيون الزبير والبصريون طلحة فباعداهم .

وبويع بعده علي رضي الله عنه بالخلافة ، وبايعت الأنصار وتأخر عن ذلك نفر منهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة ابن مخلد فقد كانوا من مؤيدي عثمان . وقد سبب مقتل عثمان لعلي مشاكل كثيرة ؛ فما أن بويع بالخلافة حتى هب انصار عثمان مطالبين إياه بثأر عثمان ، ثم تطورت الامور وتعقدت حتى وصلت إلى النزاع المسلح يوم الجمل سنة ٣٦ هـ ثم كانت صفين ، وكان ما كان فيها من رفع اهل الشام المصاحف وقبول علي للتحكيم ، ثم خروج الخوارج عن طاعة علي ، واشتباكه معهم ثم انتصاره عليهم .

وفي وسط هذا الجو الملتهب امتدت يد أثيمة فاغتالت الخليفة ؛ إذ ضربه ابن ملجم بضربة سيف في جبهته بينما هو في طريقه إلى صلاة الفجر . فانتقل إلى جوار ربه بعد يومين ، وكان ذلك سنة أربعين للهجرة ، وولي الحسن الخلافة بعد مصرع أبيه ، بمبايعة أهل الكوفة ، وهي العاصمة التي كان علي قد اتخذها له ، وبعد ستة أشهر وعدة أيام تنازل الحسن لمعاوية فانتقلت الخلافة إلى بني أمية ، الذين اتخذوا من الشام مقراً للخلافة ، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين فسميت سنة الجماعة .

أثر ظهور الإسلام على المدينة :

عاد ظهور الإسلام على المدينة بخيرات عميمة ، أدّت بها إلى أن تكون عاصمة الإسلام الأولى ، ومنها تجهزت الجيوش الإسلامية لتحارب وتنتصرفي أرجاء الحجاز والعراق والشام وفارس وأفريقيا .

وغدت بعد الإسلام من أعظم المراكز العلمية ، يسعى إليها طلاب العلم من شتى نواحي الدنيا . وقد فاقت مكة في هذه الناحية ، لأنها صارت مهاجَر جميع المسلمين من قريش وغيرها . وبعد انتقال

الرسول عليه السلام إلى جوار ربه صارت مقر الخلافة، ومركز كبار الصحابة ، وبعد الفتوحات جلب إليها الأسرى من جميع البلدان المفتوحة ، واقام فيها اكثرهم، فنقلوا إليها مالديهم من علوم وفنون، فتنوعت الثقافة فيها، وازدهرت الفنون. وقد أولى العلماء اهتمامهم الأول إلى القرآن الكريم ومدارسته وتفسيره ، فخلف كثير من الصحابة آثاراً في ذلك(١) . وكانت العناية بعد القرآن متجهة إلى الحديث النبوي ، وقد كتب كثير من الصحابة صحفاً خاصة بهم من الحديث كعبدالله بن عمرو وعبدالله بن عباس وانس بن مالك وغيرهم .

وتدارس المسلمون وحفظوا كل ما يعينهم على تفسير القرآن والحديث وفهمهما، فرووا الشعر الجاهلي وحفظوه، قال ابن عباس: إذا قراتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في اشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب . وكان إذا سئل عن شيء من القرآن انشد فيه شعراً .

وتدارسوا الأنساب وايام العرب ، فقد كان عقيل بن ابي طالب يرجع إليه في علم النسب وايام العرب . وكان أبو بكر رضي الله عنه من أعلم العرب بالأنساب حتى إن حسان بن ثابت لما اراد ان يهجو قريشاً قال له رسول الله ﷺ : استعن بأبي بكر فإنه علامة بأنساب العرب .

وكان المسجد في المدينة هو المدرسة التي يتلقى فيها المسلمون دروس العلم كما يتلقون دروس التربية الدينية . وربما خصص العلماء اياماً لكل فن وعلم مما يدرسون ؛ فقد كان عبد الله بن عباس

(١) انظر فهرست ابن النديم / ٥١ و ٥٧ .

يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه ، ويوماً التأويل ، ويوماً المغازي ، ويوماً الشعر ، ويوماً أيام العرب .

أما الكتابة فقد تقدمت في العصر الإسلامي إلى درجة كبيرة في المدينة لما وجدت من تشجيع لدى رسول الله وخلفائه . وقصة فداء أسرى بدر ، بعد تعليم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة خير دليل على ذلك .

وقد وصلت الكتابة في عهد الرسول إلى درجة من الرقي في المدينة بحيث صنف من كان يكتب له من المسلمين مراتب، كل صنف اختص بنوع من الكتابة : فكتاب يكتبون الوحي ، وكتاب يكتبون لما يعرض له من الأمور والحوائج ، وآخرون يكتبون بين القوم في قبائلهم ومياههم وأموالهم ، وكاتب يكتب خرص الحجاز ، وآخر يكتب مغانم الرسول عليه السلام ، وثالث يكتب إلى الملوك ويجيب على رسائلهم ، ويترجم بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية(١) .

ولم يعق المسلمين عن تعلم الكتابة عدم توفر الورق لديهم ، فقد كتبوا على كل ما أمكنهم الكتابة عليه من أديم وعسب وحجارة وخشب وعظام حتى لقد كتبوا على ظهور نعالهم في بعض الأحيان .

وقد أنشئت الكتاتيب ليتعلم فيها أبناء المسلمين ، فقد روى البخاري : بعثت أم سليم إلى معلم الكتاب:ابعث إليّ غلماناً ينفشون صوفاً ، ولا تبعث لي حراً .

أما الصناعة فقد تعددت في صدر الإسلام ، ذكر البخاري منها

---

(١) انظر العقد الفريد ٢٤٦/٤ والجهشياري : الوزراء والكتاب / ١٢ .

الصياغة والخياطة والحدادة والنسج والنجارة وقد وجد في المدينة من يعمل التصاوير المباحة وغيرها من الفنون .

أما التجارة ، فقد كانت المدينة بمثابة مناخ استراحة للقوافل بين اليمن والشام ثم أصبحت تلي مكة في الأهمية التجارية ، فقد كانت قبل الإسلام غاصة بتجار اليهود والمرابين والوسطاء .

ودخول الإسلام إلى المدينة كان سبباً مهماً في إنعاش تجارتها وازدهارها ، فقد حل فيها الكثير من تجار قريش الماهرين ، ونقلوا إليها فنونهم التجارية التي الفوها من مكة ، إضافة إلى تنشيط أسواقها عن طريق من كان يقصد المدينة من الوفود ، باعتبارها عاصمة الإسلام ، ومقر الرسول ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين.

واشتهرت المدينة بتعدد أسواقها فقد ذكر كعب بن مالك بانه كان يطوف في الأسواق،ومن هذه الأسواق: سوق بني قينقاع وسوق بزبالة وسوق في موضع ابن حيين كانت تقوم في الجاهلية والإسلام ، وآخر بالبطحاء ، كانت بنو سليم تجلب إليه المواشي . وطبيعي أن تتوسع هذه الأسواق في الإسلام لما أصاب التجارة من انتعاش كما ذكرنا .

وقد كان الغش متفشياً بين تجار المدينة في الجاهلية إلى أن جاء الإسلام فأنقذهم منه ، ذكر ابن عباس : لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً في الجاهلية فأنزل الله : (ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) .

وبضاعتهم هي الثياب والمأكولات ، وكانوا يسمون تجارة الثياب : البزازة . وجلبوا أصنافها من بلاد الشام واليمن وعمان

وصحار ، فقد روي أن النبي ﷺ ترك يـوم مات ثوبي حبرة ، وإزاراً عمانياً ، وثوبين صحاريين وقميصاً وقميصاً صحارياً وقميصاً سحولياً ، وجبّة يمنية . واشتغل كثير من الصحابة في هذه التجارة كأبي بكر وعثمان وطلحة وغيرهم .

أما المأكولات فكان منها في الدرجة الأولى القمح ، الذي كانـوا يجلبونه من الشام ؛ روي عن جابر : بينما نحن نصلي مع النبي إذ اقبلت من الشام عير تحمل طعاماً .

وكانت الزراعة منتشرة في المدينة ، امتهنها اغلب سكانها في الجاهلية والإسلام ، لخصب واحتها وصلاح أراضيها ، وجاء الإسلام فشجعها وحث المسلمين عليها ؛ قال الرسول عليه الصلاة والسلام مخاطباً المهاجرين : يا معشر المهاجرين إنكم بأقل الأرض مطراً ، فاقلوا من الماشية وعليكم بالزرع .

ويروى أن الرسول عليه السلام دخل على ام مبشر الانصارية في نخل لها ، فقال : لا يغرس المسلم غرساً ، ولا يزرع زرعاً ، فيأكل منه إنسان او دابة او طير او سبع إلا كانت له صدقة .

والمدينة مشهورة بأجود أصناف التمر حتى اليوم ؛ ذكـر المؤرخون أن في المدينة وما حولها مائة صنف من البلح .

وخير ما يصور أثر الإسلام على المدينة ما جاء في خطبة الرسول عليه السلام في شأن غنائم غزوة حنين قال :

يا معشر الأنصار .. ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ كلما قال شيئاً اجابت الأنصار : الله ورسوله امن وافضل .

وللمدينة قدسية خاصة لدى المسلمين ، فمنها شعت انوار الإسلام ، وفيها أرسيت دعائمه فقامت دولته الأولى ، وعند سهولها وبين شعابها دارت معارك الإسلام الأولى بين الكفر والإيمان. ورويت أرضها بدماء صحابة رسول الله الزكية ، واخيراً فقد ضمت بين جنباتها أطهر جسد لأكرم نبي ، محمد ﷺ .

وقد وردت عدة أحاديث في فضلها ، حتى صنف أهل الحديث ذلك في ابواب خاصة(١) ومما جاء في ذلك قوله عليه السلام : « إن الإيمان يأرز إلى المدينة ، كما تأرز الحية إلى جحرها » . وقد جعل الصلاة فيها تفضل الصلاة فيما سواها من الأرضين أضعافاً كثيرة : (صلاة في مسجدي هذا خير من الف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) .

وعقد الكتاب الفصول الطوال في بيان محاسنها وسرد خصائصها(٢) .

اما الأنصار فقد أثنى عليهم الرسول ﷺ خيراً ،وخصهم بمديحه في كثير من الأحاديث ، ومن ذلك قوله : (لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر) .

وكان من آخر ما أوصى به عليه السلام قبيل وفاته قوله : (يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم) .

---

(١) انظر صحيح البخاري ٢٤/٣ .

(٢) انظر السمهودي : وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى ٧٣/١ وما بعدها . والنويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ٣١١/١.

الفصل الثاني

حياة كعب رضي الله عنه

نسبه وأسرته :

هو كعب بن مالك بن أبي كعب ، وهو عمرو بن القَيْن بن كعب ابن سواد بن غنم بن كعب بن سَلِمة ـ بكسر اللام ـ ابن سعد بن علي الأنصاري السَلَمي ـ بفتح السين واللام ـ ثم الخزرجي .

لقب بالأنصاري نسبة إلى الأنصار ، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ وآوَوه والمهاجرين ؛ فلقبه هذا إذن بعد الإسلام .

أما السلمي فنسبة إلى بني سلمة من الخزرج ، وهم بنو سلمة ابن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج . ينسب النحويون إلى سلمة بفتح اللام والمحدّثون يكسرونها . ويفتحها النحاة والصرفيون للقاعدة النحوية التي تنص على أن المنسوب إليه إذا كان ثلاثة أحرف أوسطها مكسور وجب فتحه في النسب ؛ معللين ذلك بقولهم : وذلك لأنك لو لم تفتحه لصار جميع حروف الكلمة المبنية على الخفة ـ اي الثلاثية المجردة من الزوائد ، أو أكثرها ـ على غاية من الثقل بتتابع الأمثال من الياء والكسرة . ويبدو أن المحدّثين الحقوا ياء النسبة بالكلمة على صورتها المفردة في اللغة ، دون أن يتنبهوا إلى قاعدة النحاة السابقة .

اما الخزرجي فنسبة إلى قبيلة الخزرج بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو : مزيقاء بن عامر : ماء السماء بن حارثة الفطريف ابن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقد مر بنا في الفصل السابق أن الخزرج مع إخوانهم الأوس نزلوا يثرب بعد هجرة الأزد من اليمن إثر سيل العرم .

فشاعرنا إذن يماني الأصل عدناني النشأة .

● أما كنيته ، فأغلب المصادر تشير إلى أنه أبو عبد الله ، ويذكر بعضها أنه أبو عبد الرحمن ، وانفرد ابن حجر بأنه أبو محمد . وهم جميعاً أولاده ، ولكنهم ليسوا من زوجة واحدة ، وإنما كل منهم من زوجة ، ولذلك يجوز أنه كان يكنى بأكبر أولاده من كل زوجة .

وقيل إن كنيته في الجاهلية كانت أبا بشير ، فكناه النبي ﷺ أبا عبد الله وهو أكبر ولده كما سيأتي .

● وأبوه مالك بن أبي كعب شاعر ، وله في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهما قبل الإسلام آثار . وأمه ليلى بنت زيد ابن ثعلبة من بني سلمة أيضاً .

● تزوج كعب بأكثر من واحدة ــ على عادة العرب في ذلك الوقت ــ غير أننا لا نعلم متى كان زواجه بكل منهن ، وهن : عميرة بنت جبير ابن صخر بن أمية ، من بني سلمة ، تزوجها كعب فولدت له عبد الله وفضالة ، ووهباً ومعبداً ، وخولة ، وسعاد .

واسلمت عميرة وهي أم معبد ، وبايعت الرسول ﷺ ، وصلت إلى القبلتين . وصفية ، وهي من أهل اليمن ، ولدت له كبشة زوجة

ثابت بن أبي قتادة الأنصاري . وأم ولد ، ولدت له عبد الرحمن في عهد النبي ﷺ ، وقد توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك . وخيرة ويقال حيره ، وكان لها أولاد ، ولكن لم تذكر المصادر أسماءهم ، فقـد روى ابن الأثير حديثاً رواه رجل من ولد كعب بن مالك عن أبيه عن جدته خيرة امرأة كعب بن مالك ، وأم عبد الله بن أنَيْس . وذكر الزمخشري أن لكعب بن مالك امرأة كانت من المهاجرات السابقات ، وهي غير عميرة وأم أنيس ، لأنهما أنصاريتان ، وغير صفية ، لأنها من اهل اليمن ، وربما كانت أم ولد، أو خيرة ؛ وإلا فهي الزوجـة السادسـة .

وعدد أولاده المذكورين ثمانية ذكـور وثـلاث إنـاث ، وانفرد السخاوي بقوله : إن لكعب ولداً اسمه سعيد ، وذكر ابن حجر أن لكعب بن مالك ولدين ، اسم كل منهما محمد ، مات الأكبر منهما في حياة النبي ﷺ .

وكان أكبر أولاده عبد الله ، أما أصغرهم فهو معبد .

ولكعب أخ يقال له سهل ، قال ابن حبان : له صحبة . وأخ آخر اسمه سراقه ، ولم يجر له ذكر مع الصحابة . وابن عمه لَحاً(١) سهل بن قيس بن أبي كعب ، شهد بدراً وقتل يوم أحد شهيداً .

وقد اشتهر بيت كعب بالشعر ، كما اشتهر بالعلم والحديث ، فكعب روى عن رسول الله ﷺ ثمانين حديثاً ، وهو ثقة لدى أصحاب الحديث ، يروي له أصحاب الصحاح والسنن . وروى الحديث من ولده : عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن ومحمد وكبشة ومعبد ،

---

(١) لَحاً : ذا قرابة قريبة .

ووثقهم جميعاً أصحاب الحديث(١) . وزوجته خيرة هي الأخرى ممن روى الحديث ، ويروي الحاكم عن عبيد الله بن كعب أنه كان من أعلم قومه(٢)،وكان عبد الله بن كعب من أعلم الأنصار(٣)،وعبد الرحمن ابن كعب كان ممن يفتي بالمدينة بعد الصحابة(٤) ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب من فقهاء المدينة البارزين ، وقيل إنه كان أعلم قومه وأوعاهم(٥) .

نشاته وإسلامه :

من الغريب أن هذا الشاعر ذا الأثر الكبير في حياة الإسلام لم ينل من مؤرخي الأدب ما هو جدير به من الدرس والتحقيق ، فلا تزال أخباره خليطاً من الروايات المقتضبة إلى حد كبير ، وحين نفتش في كتب التاريخ أو الأدب لا نعثر على صورة ـ ولو غامضة ـ للربع الأول من حياته قبل أن يصل حبله بحبل الإسلام ، وكل الذي بين أيدينا عنه إنما هو بعد إسلامه ، وحتى هذا لا يعطينا صورة واضحة عنه ، فهنالك فجوات واسعة من حياته ، لا نزال نجهلها ، ولا نعرف عنها شيئاً .

---

(١) انظر ابن سعد ٥/٢٠١ والرازي « الجرح والتعديل » م ٢ ق٢ / ١٤٢ و ٣٣٢ .

(٢) الاصابة ٣/١٥٨ .

(٣) ابن هشام ١/٤٣٩ . والطبري ١/٣٦٠ .

(٤) ابن سعد ٢ق٢/١٣٢ .

(٥) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة ٣/١٤٨ .

وقد اسلم كعب مبكراً ، فكان من اوائل الأنصار في المدينة ، فما أن وصل نور الإسلام إلى يثرب حتى أضاء جوانب نفسه ، وانشرح صدره للإيمان ، فآمن بالإسلام ، وصدق رسوله عليه السلام ؛ في الوقت الذي لم يكن في المدينة أكثر من أربعين رجلاً من المسلمين ، وصلى الجمعة فيها قبل هجرة الرسول إليها ، قال عبد الرحمن بن كعب : كنت قائد أبي حين ذهب بصره(١) فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة ، فسمع الأذان بها صلّى(٢) على أبي امامة ـ أسعد بن زرارة ـ قال : فقلت : يا ابت مالك إذا سمعت الأذان بالجمعة صليت على أبي أمامة ؟ قال : فقال : أي بني ، كان أول من جمّع بنا بالمدينة في هزم النبيت من حرة بني بياضة ، يقال له نقيع الخضمات ، قلت له : وكم انتم يومئذ ؟ قال : اربعون رجلاً .

ولما كانت العقبة الثانية توجه كعب مع اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين ممن كانوا طلائع الإسلام الأولى في المدينة إلى مكة ، حيث وافوا رسول الله ﷺ في العقبة ، وبايعوه على الإسلام والإيواء والنصر ، وتجمع المصادر على وجوده مع هؤلاء الاثنين والسبعين ، ولذلك قيل عنه : عقبي ، وأغلب المصادر تروي قصة العقبة عن طريقه ، فقد فصلها بأسلوب قصصي ممتع ، وقد رأيت أن أثبتها كما حدّث بها ، فإنها تكشف عن كثير من جوانب شخصيته ، والدور الذي اضطلع به في خدمة الإسلام ، والدعوة إلى الله .

---

(١) ذهب بصره : فقده فصار أعمى .

(٢) صلى : دعا .

قصة بيعته للنبي ﷺ في العقبة :

قال كعب : خرجنا في الحجة التي بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا ، ومعنا البراء بن معرور ، كبيرنا وسيدنا ، حتى إذا كنا بظاهر البيداء قال : يا هؤلاء تعلَمُنَّ أني قد رأيت رأياً ، والله ما أدري أتوافقوني عليه أم لا ؟ فقلنا : وما هو يا أبا بشر ؟ قال : إني قد رأيت أن أصلي إلى هذه البنية ، ولا أجعلها مني بظهر ، فقلنا : لا والله لا نفعل ، والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام قال : وإني والله لمصلي إليها ، فكان إذا حضرت الصلاة توجه إلى الكعبة وتوجهنا إلى الشام حتى قدمنا مكة ، فقال لي البراء : يا ابن أخي ، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ ، حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا ، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي .

قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ فلقينا رجلاً بالأبطح(١)، فقلنا : هل تدلنا على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ فقال : هل تعرفانه إن رأيتماه ؟ فقلنا : لا والله ما نعرفه ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ ، فقال : هل تعرفان العباس بن عبد المطلب ؟ فقلنا : نعم . وقد كنا نعرفه ، كان يختلف إلينا بالتجارة ، فقال : إذا دخلتما المسجد فانظرا العباس فهو الرجل الذي معه ، قال : فدخلنا المسجد فإذا رسول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسَين ، قال : فسلمنا ثم جلسنا ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ فقال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ــ فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : الشاعر ؟

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى .

قال : نعم ـ . فقال له البراء : يارسول الله إني قد كنت رأيت في سفري هذا رأياً ، وقد أحببت أن أسألك عنه لتخبرني عما صنعت فيه ، قال : وما ذاك ؟ قال : رأيت الاّ أجعل هذه البنية مني بظهر ، فصليت إليها ، فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت على قبلة لو صبرت عليها » فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ ، وصلى معنا إلى الشام .

ثم واعدنا رسول الله ﷺ العقبة أوسط أيام التشريق ، ونحن ثلاث وسبعون رجلاً للبيعة . ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، وإنه لعلى شركه ، فأخذناه ، فقلنا : يا أبا جابر ، والله إنا لنرغب بك أن تموت على ما أنت عليه ، فتكون لهذه النار غداً حطباً ، وإن الله قد بعث رسولاً يأمر بتوحيده وعبادته ، وقد أسلم رجال من قومك وقد واعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة ، فأسلم ، وطهّر ثيابه ، وحضرها معنا ، فكان نقيباً .

فلما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا ، واستفل(١) الناس من النوم ؛ تسللنا من فرشنا تسلل القطا حتى اجتمعنا بالعقبة ، فأتى رسول الله ﷺ وعمه العباس ، ليس معه غيره ، أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ، فكان أول متكلم فقال :

يا معشر الخزرج ـ وإنما كانت العرب تسمي هذا الحي من الأنصار أوسها وخزرجها الخزرج ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وهو في مَنَعة من قومه وبلاده ، قد منعناه ممن هو على مثل رأينا فيه وقد أبى إلا الانقطاع إليكم ، وإلى ما دعوتموه إليه ؛ فإن كنتم

---

(١) استفل الشيء : أخذ منه أدنى جزء .

ترون أنكم وافون له بما وعدتموه فانتم وما تحملتم ، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلاناً له فاتركوه في قومه ، فإنه الآن في منعة من عشيرته وقومه .

فقلنا : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله .

فتكلم رسول الله ﷺ ودعا إلى الله عز وجل ، وتلا القرآن ، ورغب في الإسلام ، فأجبناه بالإيمان والتصديق له ، وقلنا له : يا رسول الله خذ لربك ولنفسك ، فقال : إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم ، فأجابه البراء بن معرور فقال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ؛ فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحَلْقة(١) ، ورثناها كابراً عن كابر .

فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التَّيِّهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين أقوام حبالاً ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيتَ إنِ الله أظهرك أن ترجع إلى قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم مني ؛ أسالم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم .

فقال له البراء بن معرور : ابسط يدك يارسول الله نبايعك . فقال رسول الله ﷺ : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ، فاخرجوهم له ــ وعدّد النقباء ــ . قال : فاخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ ، فضرب عليها ، وكان أول من بايع ، وتتابع الناس فبايعوا . . . ثم قال رسول الله ﷺ : ارفضّوا إلى رحالكم ، فقال العباس بن عبادة

---

(١) الحلقة : السلاح .

ابن نضلة أخو بني سالم : يارسول الله ، والذي بعثك بالحق لئن شئتَ لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نؤمر بذلك ، ارفضوا إلى رحالكم .

فرجعنا إلى رحالنا ، فاضطجعنا على فرشنا ، فلما أصبحنا أقبلت جلة(١) من قريش ، فيهم الحارث بن هشام ، فتى شاب ، وعليه نعلان له جديدان ، حتى جاؤونا في رحالنا ، فقالوا : يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا ، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ؛ فانبعث مَنْ هناك من قومنا من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان من هذا من شيء وما فعلناه ، وأنا انظر إلى أبي جابر عبد الله بن عمرو بن حرام ، وهو صامت ، وأنا صامت فلما تثوّر القوم لينطلقوا ، قلت كلمة كأني أشركهم في الكلام : يا أبا جابر ، انت سيد من ساداتنا ، وكهل من كهولنا لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلَي هذا الفتى ؟ فسمعه الفتى فخلع نعليه ، فرمى بهما إليّ ، وقال : والله لتلبسهما ، فقال أبو جابر : مهلا أحفظت لعمر الله الرجل — يقول أخجلته — اردد عليه نعليه ، فقلت : والله لا أردهما ، فأل صالح والله ، إني لأرجو ان استلبه .

* * *

وعندما آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كان كعب ممن شملته هذه المؤاخاة ؛ ولكن اختلف الرواة فيمن كان أخاه من

---

(١) جلة : جمع جليل ، يقال : قوم جلة اي : سادة عظام .

المهاجرين ، فالبعض يروي انه طلحة ، والبعض الآخر يروي انه الزبير ابن العوام ، ويذكر هؤلاء حادثة تؤيد ذلك : عن هشام بن عروة عن أبيه الزبير قال : فلقد رايت كعباً اصابته الجراحة بأحد ، فقلت لو مات فانقطع عن الدنيا لورثته ، فأنزل الله : (واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) . ويرجع سبب هذا الاختلاف إلى أن النبي ﷺ كان آخى بينه وبين طلحة لما آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكان الزبير اخا طلحة في اخوة المهاجرين فهو اخو اخيه .

جهاده في سبيل الله :

كما حارب كعب أعداء الله بلسانه ، وذبّ عن الرسول بشعره؛ جاهد بسيفه ، حتى شهد له الرسول عليه السلام بذلك حين قال له : « أنت تحسن صنعة الحرب » . واشترك كعب مع الرسول في جميع المشاهد ، إلا غزوتي بدر وتبوك ، وقيل إنه شهد بدراً وهذا وَهَم ينفيه قول كعب نفسه : لم اتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة إلا في غزوة تبوك ، غير اني كنت تخلفت في غزوة بدر . ولم يكن تخلفه يوم بدر عن قصد أو تهاون ، إذ تخلف معه قوم من أصحاب رسول الله ، لم يحسبوا أن المسلمين سيحاربون ، منهم اسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، هناه اسيد بنصر الله له ، وإظهاره إياه على عدوه ، واعتذر عن تخلفه وقال : إنما ظننت أنها العير ، ولم أظن انك تحارب ، فصدقه رسول الله ﷺ .

وقال كعب : تخلفت عن غزوة بدر ، ولم يُعاتب أحدٌ تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

ولقد أبلى كعب وقومه من بني سلمة بلاءً حسناً يوم أحد ، حتى جرح منهم أربعون رجلاً . وجرح كعب يومئذ بضعة عشر جرحاً .

ولم تقعد بكعب وقومه هذه الجراح المثخنة عن متابعة الجهاد في سبيل الله ؛ إذ بعد أحد ـ التي جرحوا فيها ـ بيوم واحد فقط ، طلب رسول الله ﷺ من المسلمين أن يخرجوا لقتال العدو في غزوة حمراء الأسد ، فوثب المسلمون الى أسلحتهم ، وما عرجوا على جراحاتهم ، فصفوا لرسول الله ﷺ ، فلما نظر رسول الله إليهم والجراح فيهم فاشية . قال : اللهم ارحم بني سلمة .

قصة تخلفه عن غزوة تبوك :

أما قصة تخلفه عن تبوك وتوبة الله عليه وعلى صاحبيه اللذين تخلفا معه ، فقد اشتهرت في التاريخ، لما نزل فيها من قرآن ،وامتحن فيها كعب وصاحباه امتحاناً عسيراً ، خرجوا منه بتوبة الله عليهم وعذرهم .

وكانت غزوة تبوك في حر شديد ، فأصاب المسلمين الجهد ، حتى سميت غزوة العسرة ، وصفها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ، في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقي على كبده .

وتخلف عن هذه الغزوة بسبب هذا الحر بضعة وثمانون رجلاً من المدينة ، أغلبهم مغموص عليه في النفاق ، أو ضعيف .

اما لماذا تخلف كعب مع هؤلاء الضعاف النفوس أو الاجسام ، مع ما هو عليه من قوة الإيمان ، وجلد الشباب ؟ فإن ابن هشام يرد ذلك إلى انه هو ونفر من المسلمين ابطأت النية بهم عن رسول الله ﷺ حتى تخلفوا عنه ، من غير شك ولا ارتياب ، إذ كانوا نفر صدق ، لايتهمون في إسلامهم ، ولم اجـد ما يصور قصة تخلفه خـيراً مما صوره هو بنفسه ، ورواه عنه ابنه عبد الله ، كما ذكر ذلـك اغلب أصحاب الحديث والمؤرخين (١) قال :

(كان من خبري أني لم أكن قط اقوى ولا ايسر حين تخلفت عنه (٢) في تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندي راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً ، فجلّى للمسلمين امرهم ليتأهبوا اهبة غزوهم ، فاخبرهم بوجهه الذي يريد . والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لايجمعهم كتاب حافظ ــ يريد الديوان ــ قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له مالم ينزل فيه وحي من الله .

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة ، حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت اغدو كي أتجهز معهم ، فارجع ولم اقضِ شيئاً ، فاقول في نفسي : أنا قادر عليه إذا

(١) انظر النسائي : ٢٠٣/٧ ومسند احمد : ٤٦٠/٣ ومسلم : ٦٣/٤ وابن هشام ٥٢٠/٢ وتفسير الطبري ٢٤٨/١٥ .

(٢) عنه : أي رسول الله ﷺ .

اردت . فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم اقضِ من جهازي شيئاً . فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم الحقهم . فغدوت بعد أن فَصَلوا لاتجهز ، فرجعت ولم اقضِ شيئاً ، فلم يزل ذلك بي حتى اسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت ان ارتحل فأدركهم ، ــ وليتني فعلت ــ فلم يقدر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم ، احزنني اني لاارى إلا رجلاً مغموصاً عليه بالنفاق ، او رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه ، ونظره في عطفه(١) ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب : فلما بلغني انه توجه قافلاً حضرني همي ، وطفقت اتذكر الكذب وأقول : بما اخرج من سخطه غدا ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من اهلي . فلما قيل ان رسول الله ﷺ قد اظل قادماً زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه ابداً بشيء فيه كذب ، فاجمعت صدقه ، واصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس .

فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً . فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم

---

(١) كناية عن كونه معجباً بنفسه ، ذا زهو وتكبر .

وبايعهم واستغفر لهـم ، ووكل سرائرهم إلى الله . فجئته ، فلما سلّمت عليه تبسّم تبسم المغضب ثم قال : تعـال ، فجئت امشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلّفك ؟ الم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، إني والله لو جلستُ عند غيرك من اهل الدنيا لرايت ان سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيتُ جدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله ان يسخطك عليّ ،ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط اقوى ولا ايسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول الله ﷺ : اما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضي الله فيك .

فقمت وقام رجال من بني سلمة ، فاتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت اذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى اردت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي احد ؟ قالوا : نعم . رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت: من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما .

ونهى رسول الله المسلمين عن كلامنا ايها الثلاثة من بين مـن تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي اعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأمـا

صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ ، واسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم اصلي قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا اقبلت على صلاتي أقبل إليّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت جدار أبي قتادة وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله مارد عليّ السلام . فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، وتوليت ، حتى تسورت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا بنبطيّ من أنباط أهل الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان(١) فإذا فيه :

أما بعد : فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هَوان ، ولا مَضْيعة ، فالْحَقْ بنا نواسِك .

فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك .

---

(١) قيل : إن ملك غسان هو جبلة بن الأيهم .

فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فتكوني عندهم ، حتى يقضي الله في هذا الأمر . قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لايقربك . قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

فلبثت بعد ذلك عشر ليال،حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع(١) بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك أبشر ، قال : فخررتُ ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبيّ مبشرون ، وركض إلي رُجلٌ فرساً ، وسعى ساعٍ من أسلَم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني

---

(١) وهو جبل في سوق المدينة .

نزعت له ثوبيّ ، فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ فاستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يهنئونني بالتوبة يقولون : لتهنِك توبة الله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله . وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه .

فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ، قال ﷺ : امسك مالك ، فهو خير لك ، قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . فقلت: يارسول الله ، إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومنا هذا كذباً ، وإني لأرجو أن يحفظني الله ما بقيت .

وانزل الله على رسوله ﷺ : (لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة

الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) . فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للاسلام ، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ ، أن لا أكون كذبته فأهلك ، كما هلك الذين كذبوا ، فان الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد . فقال تبارك وتعالى : (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رِجْس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لايرضى عن القوم الفاسقين) .

قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه . فبذلك قال الله : (وعلى الثلاثة الذين خلّفوا) . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه .

* * *

ويتجلّى في هذه القصة إيمان كعب العميق ، وإسلامه الكامل . واظهر مايتألق هذا الإيمان والإسلام حين طمع ملك غسان فيه ، فأرسل إليه ليفتنه ، ولكن إيمان كعب الصادق ، وفهمه العميق للاسلام ، جعلاه يرفض بكل إباء العرض الذي قدم إليه ، مفضلاً مرارة العيش التي كان فيها مع الإسلام ، على نعيم القصور الذي عرض عليه مع الكفر .

وقد شغل أمر كعب المسلمين في المدينة ، واهتم به بيت الرسول عليه السلام ، حتى سألت أم سلمة زوج النبي ﷺ الرسول ﷺ إخبار كعب فور نزول توبته ، والوقت سحر ، فخشي الرسول عليه السلام إن فعلت ذلك أن يتجمع الناس ، ويمنعون أهله النوم .

قال كعب : ونزلت توبتنا على النبي ﷺ ثلث الليل ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله ،الا نبشر كعباً ؟ قال : إذاً يحطمكم الناس ويمنعوكم النوم . وكانت قصته من الأهمية بحيث جعلت أبا بكر يسابق عمر ــ رضي الله عنهما ــ ليبشرا كعباً بتوبته . ورقي أبو بكر جبل سلع وصاح : قد تاب الله على كعب بن مالك ؛ يبشره .

وكان أكثر ما يهم كعباً أن يموت قبل أن ينزل الله توبته . قال : ما من شيء أهم إليّ من أن أموت ، فلا يصلي عليّ النبي ﷺ أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم أو يصلي عليّ .

وقد بلغ التأثر والندم به مبلغاً جعله يخرج من أهله إلى الرقة(١) ويتخذ فسطاطاً يأوي إليه بالليل ، ويتعبد الله في الشمس بالنهار ، حتى عاد مثل الرهبان . ثم رجع إلى سلع ، وكان يقيم به النهار صائماً ، ويأوي إلى داره بالليل ، حتى نزلت توبته ؛ فكان فرحه لا يوصف ، وتصويره له في القصة يغني عن كل وصف . وعندها ذهب فقبل يد النبي ﷺ لما نزل على يديه من تلك التوبة .

---

(١) الرقة : كل أرض تكون إلى جانب واد ينبسط عليها الماء أيام المد ، ثم ينحسر عنها .

مع الرسول ﷺ :

ما أحد ممن رأى رسول الله ﷺ إلاّ أحبه وتمنى أن لا يفارقه ، وقد أحب كعب الرسول عليه السلام من قلب مؤمن ، وطبع غير متكلف ، وصاحبه في السلم والحرب . ويرسم لنا الواقدي صورة من هذا الحب فيقول : إن الحارث بن أبي ضرار ـ وهو مشرك ـ قد أقسم بعيد غزوة بني المصطلق ، وعند رجوع الرسول ﷺ إلى المدينة : لايرجع حتى يقتل بعض أصحاب النبي ﷺ . فنزل نبي الله ، وأمر الناس أن يضعوا رؤوسهم وقال: لاتحلوا عقدة ، ففعلوا. وجعل حرساً من وراء الناس ، وأمّر عليهم حارثة بن النعمان فأمر حارثة أصحابه أن يناموا ، وقال : إني سأكفيكم الحرس ، فإن رأيت شيئاً آذنتكم . فبينما هو يقرأ وأصحابه نيام ، إذ دنا منه الحارث فقاموا إليه فلم يدركوه ، وقالوا : يا حارثة غفلت عن الرجل حتى رمى . قال : لا ، ولكني أردت أن يشعرني سهماً ثم أوذنكم . وذكر كعب بن مالك قرب الحارث وغرة أصحاب نبي الله ﷺ ، فامتنع منه النوم ، فأتى رسول الله ﷺ فقام على رأسه بالسيف حتى أصبح ، فلما استيقظ رسول الله ﷺ فقام ، فإذا هو بكعب قائماً على رأسه بالسيف ، قال : مالك يا كعب ؟ قال : ذكرت الحارث بن أبي ضرار وقربه منا ، وغرتك يا نبي الله ، وغرة أصحابك ، فامتنع مني النوم، فقمت إليك أحرسك ، فقال له نبي الله معروفاً .

وقيل إن مظهره عن بعد كان يشبه الرسول ﷺ ، ففضل ان يكون هدفاً لسهام المشركين في أحد بدلاً من الرسول ﷺ ، ولبس لأمة النبي ، وكانت صفراء ، ولبس النبي لأمته ، فجرح كعب أحد

عشر جرحاً . وعندما ظن الناس أن النبي ﷺ قتل في أحـد ، كان كعب أول من عرف النبي سالماً . قال : عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر ، ولم يتمالك نفسه مـن الفرح ، فراح ينـادي بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن أنصت .

وقدر رسول الله عليه السلام لكعب إيمانه وأمانته ، فولاه في السنة التاسعة للهجرة صدقات أسلم وغفار ، وقيل جهينة أيضاً .

وفي حجة الـوداع بعثه ينادي في الناس بمنى : أن رسول الله قال : إنها أيام أكل وشرب وذكر لله . فانتهى المسلمون عن صيامهم .

وكان كعب يتقن الكتابة ، ويعرف الحساب ، فأرسله النبي ليعلّم حدود حرم المدينة . قـال : حرّم رسـول الله ﷺ الشجر بالمدينة بريداً في بريد ، وأرسلني فأعلمت على الحرم على شرف ذات الجيش ، وعلى مشيرف ، وعلى أشراف المجتهر ، وعلى تيم (١) . وكان الرسول يستمع إلى شعره وهو ينشد ، ويرتاح إلى ذلك ، بل ويطلب إليه أن ينشده ، يستعين بسماعه على السفر . قـال ابن سيرين : بينما رسول الله ﷺ في سفره قد شنق ناقته بزمامهـا ، حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرحل ، إذ قال ﷺ : يا كعب بن مالك احْدُ بنا ؛ فقال كعب :

قضينا من تهامـة كلَّ حق ... وخيبرَ ثم أجممنا السيوفا
نخيرهـا ولـو نطقت لقالت ... قواطعهن دَوْساً أو ثقيفـا

---

(١) جميعها أماكن في المدينة .

فقال عليه السلام : والذي نفسي بيده ، لهي أشد عليهم من رشق النبل .

وعندما انتقل الرسول إلى الملأ الأعلى كان نبأ وفاته فجيعة كبرى لكعب ، ولغيره من المسلمين ، وأثارت قريحته فقال :

فجعنا بخير الناس حياً وميتاً ... وأدناه من ربّ البرية مقعدا

وذرفت عيناه الدمع الساخن بل كان يستزيدها بإنشاده :

ياعين فابكي بدمع ذَرِي ... لخير البرية والمصطفى

وبكّي الرسول وحق البكاء ... عليه لدى الحرب عند اللقا

* * *

في عهد الراشدين :

بعد أن توفي الرسول عليه السلام كان كعب ممن حضر السقيفة للتداول في أمر الخلافة ، قال أبو ذؤيب الهذلي : فجئت السقيفة ، فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وجماعة من قريش ، ورأيت الأنصار ،وفيهم سعد بن عبادة ، وفيهم شعراؤهم حسان وكعب .

ولم يذكر المؤرخون كعباً بعد هذه الحادثة ، حتى تولى عثمان الخلافة ، فاستعمله على صدقة مزينة . وعندما اشتعلت الفتنة لمع اسم كعب الى جانب عثمان رضي الله عنه ، فواكب الفتنة من أولها إلى آخرها ، وكان ممن دافع عن عثمان في أشد ساعاته ، وبقي إلى جانبه حتى الرمق الأخير، بل ظل على وفائه له حتى بعداستشهاده.

فعندما توجه خمسمائة من المصريين إلى المدينة مظهِرين أنهم يريدون العمرة ، علم عثمان أنهم لا يريدون العمرة بل يبغون الفتنة؛

فقال : هؤلاء يظهرون أنهم يريدون العمرة ، والله ما يريدون إلا الفتنة ، لقد طال على الناس عمري ، ولئن فارقتهم ليتمنون يوماً من أيامي . ثم رأى أن يستعين بالإمام علي رضي الله عنه ، فتوجه إليه في منزله وطلب منه أن يركب إليهم فيردهم ، وعاهده أن ينفذ ما يشير به عليه . فركب علي رضي الله عنه ومعه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً . وفيهم كعب بن مالك فأتوا المصريين فكلموهم ، حتى انصرفوا راجعين إلى مصر .

ثم تطورت الحوادث بعد ذلك ، وعاد المصريون إلى المدينة ، واجتمع معهم كثير ممن لم ترق لهم خلافة عثمان رضي الله عنه ، وحاصروه في داره ، وتجمع الروايات على وجود كعب بين من كان في الدار من الصحابة وابنائهم يدفعون الثوار عن عثمان . وشهر كعب سلاحه مع من دافع عن عثمان ، ولم يغمده إلا بعد أن ناشدهم عثمان أن يغمدوا سيوفهم .

وكان عدة من في الدار من المهاجرين والأنصار قريباً من سبعمائة ، ولو تركهم عثمان لمنعوه(١) إلا أنه كان مسالماً آثر أن يفدي أرواح المسلمين بنفسه ، فقتل صابراً محتسباً . قال أبو هريرة : إني لمحصور مع عثمان رضي الله عنه في الدار فرمي رجل منا، فقلت : يا أمير المؤمنين الآن طاب الضراب ، قتلوا منا رجلاً ، فقال عثمان : عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك ، فإنما تراد نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي(٢) . وطلب رضي الله عنه ممن كان معه من انصاره

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٨١/٧ .

(٢) الاستيعاب : ١٤٠٦/٣ .

ان لا يقاتلوا مهما حصل . قال عبد الله بن عامر بن ربيعة : كنت مع عثمان في الدار فقال : اعزم على كل من رأى لي عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده ، ويلقي سلاحه ؛ فألقى القوم أسلحتهم ، وإلى ذلك يشير كعب بن مالك في قوله :

وقال لمن في داره لا تقاتلوا　　عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل

ورأى كعب أن نصر عثمان في تلك الفتنة نصر لله ، فدعا الذين نصروا الله حين أيدوا رسوله ضد الكفر أن ينصروه ضد من يريد قتل خليفته الذي بايعه المسلمون . قال ابن شهاب : بلغني أن كعب بن مالك قال يوم الدار : يا معشر الأنصار انصروا الله مرتين(١) . وقتل حفيده عبد الله بن عبد الرحمن يوم الدار مع عثمان ، ولما قتل عثمان رضي الله عنه ، وقف كعب على مجلس للأنصار في مسجد رسول الله ﷺ وأنشدهم شعراً ، يؤنبهم فيه على خذلان عثمان مطلعه :

من مبلغ الأنصار عني آية　　رسلا تقص عليهم التبيانا

وحين أراد المسلمون دفن عثمان رضي الله عنه أبى عليهم القتلة ذلك ، فقرروا دفنه خفية ، وقيل استؤذن في ذلك بعض رؤسائهم ، فخرجوا به في نفر قليل من الصحابة، فيهم كعب بن مالك الأنصاري .

وفي خلافة علي رضي الله عنه لا نجد لكعب بن مالك ذكراً هاماً وخاصة في الحرب بينه وبين معاوية .

---

(١) الاستيعاب : ١٣٢٦/٣ .

هذا وقد أورد أبو الفرج الأصبهاني في كتابه « الأغـاني » خبراً خلاصته : أن حسـان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير دخلوا على علي فناظروه في شأن عثمان ، وأنشده كعب شعراً في رثاء عثمان ، ثم خرجوا من عنده فتوجهوا الى معاوية فأكرمهم . لكن هذا الخبر لا يثبت لأن في سنده ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ ضعف وانقطاع .

ويظهر أن كعباً قضى بقية حياته في المدينة تاركاً الشام التي تردد عليها فترة أيام الإمام علي ، وكما يستدل من قصة صلاة الجمعة التي رواها عنه ابنه عبد الله وذهب بصره في زمن معاوية .

وقد انفرد ابن أبي حاتم الرازي بقوله(١) : إن كعباً كان من أهل الصفة ؛ ولا أظن هذا الخبر صحيحاً من عدة وجوه : منها أن أهل الصفة كانوا مهاجرين كما روى البيهقي عن عثمان بن اليمـان : لما كثر المهاجرون بالمدينة ، ولم يكن لهم دار ولا مأوى ، أنزلهـم رسول الله ﷺ المسجد ، وسماهم أصحاب الصفة . ولأن أهـل الصفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله ، وليس لهم أهل ولا مال ، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ . وهذا يخالف ما نعرفه عن كعب فإن له أهلاً في المدينة كما مر بنا ، وثبت أن له مالاً أراد أن ينخلع منه صدقة حين نزلت توبته ، وكذلك كانت له زوجة تتصدق في سبيل الله ، وحملت حليها صدقة الى رسول الله ﷺ(٢) ، وكان

---

(١) الجرح والتعديل جـ ١٤٢/٢٣ .

(٢) انظر أسد الغابة ٤٤٨/٥ .

يكرم من ينزل المدينة من أصدقائه ، ويهدي لهم . إضافة إلى هذه القرائن التي تنفي أن يكون من أصحاب الصفة فإن أبا نعيم لم يذكره في القائمة التي ذكر فيها جميع أهل الصفة في أول كتابه « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » .

*　*　*

وفاته :

اختلف في وفاته على أقوال : فقد روى الواقدي أنه مات سنة خمسين ، وهو قول أغلب المؤرخين المتقدمين منهم (١) والمتأخرين(٢) .

وعن الهيثم بن عدي أنه توفي سنة إحدى وخمسين ، وقال بذلك القاسم بن عدي أيضاً ، وقد ذكر البخشي التأريخين فقال : إنه مات في خلافة معاوية سنة خمسين أو إحدى وخمسين .

والقول الثالث أنه مات سنة ثلاث وخمسين ، انفرد به البغدادي قال : توفي كعب بن مالك في مدة معاوية سنة خمسين ، وقيل سنة ثلاث وخمسين(٣) .

---

(١) العامري اليمني : الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة .

(٢) ابن العماد : ٥٦/١ ، والسندي : البدر المنير في صحابة البشير النذير ص ١٥٣ .

(٣) ابن العماد : ٥٦/١ ، والسندي : البدر المنير في صحابة البشير النذير ص ١٥٢ .

وورد قول رابع يخالف ما سبق كثيراً رواه الكلبي ، وهو انه مات قبل إحدى وأربعين . وقال المدائني ما يقارب هذا القول قال : إنه توفي سنة أربعين . وذهب ابن البرقي إلى أنه توفي قبل الأربعين .

والأقوال الثلاثة الأولى متقاربة ، ويمكن أن يكون أي واحد منها الصحيح ، مع أن شبه الإجماع انعقد على أن وفاته كانت سنة خمسين .

اما القول الذي يذهب إلى انه توفي قبل إحدى واربعين فإن ابن كثير رد عليه بقوله : غلط الكلبي في قوله إنه شهد بدرا ، وفي قوله إنه توفي قبل إحدى وأربعين ؛ فإن الواقدي ـ وهو أعلم منه ـ قال : توفي سنة خمسين(١) . ونفس الرد بالنسبة للرأيين الآخرين . ويؤيد رأي ابن كثير ما رواه ابن أبي حاتم الرازي بأن كعباً فقد بصره في عهد معاوية .

وكما اختلف في سنة وفاته ، فقد اختلف في مكانها ، واكثر الرواة على أنه توفي بالمدينة والقول الآخر انه توفي بالشام . وأرجّح القول الأول ، لأن ابنه عبد الله روى انه كان يقود أباه بعد أن فقد بصره حين كان يخرج لصلاة الجمعة في المدينة . ونحن نعلم انه فقد بصره في زمن معاوية وأنه كان قد خرج من المدينة زمن علي رضي الله عنه فلا بد أن يكون قد رجع إليها ثانية في عهد معاوية وقضى بقية أيامه فيها . وأغلب الصحابة كان يفضل أن يموت فيها ليجاور رسول الله ﷺ ، وللأحاديث التي وردت في تفضيل الحياة

---

(١) البداية والنهاية ٤٨/٨ .

والموت فيها كقوله ﷺ : لا يصبر أحد على لأوائها(١) فيموت فيها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً . وقوله : والذي نفسي بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه .

أما القبر الذي ذكره ياقوت في حمص على أنه قبر كعب فهو كعب الأحبار ، الذي مات بحمص في خلافة عثمان كما جاء في التهذيب(٢) وكما هو معروف لدى أهل حمص .

ولم يختلف أحد ممن أرخ لكعب في أن سنه حين وفاته كانت سبعة وسبعين عاماً (٣) .

ولم أعثر فيما اطلعت عليه من مصادر على نص يشير إلى سنة مولده ، ومع ذلك فيمكن تحديد ذلك على ضوء ما مر بنا من سنة وفاته وسنه ؛ فقد تأيد لنا أنه توفي حوالي سنة خمسين ، وكان عمره آنذاك سبعة وسبعين عاماً ، فيكون مولده قبل الهجرة بحوالي سبعة وعشرين عاماً على وجه التقريب .

* * *

---

(١) اللأواء : الشدة والجوع .

(٢) ابن حجر ٤٣٩/٨ . لسان العرب والتاج مادة (حبر) .

(٣) انظر مثلاً أنساب الأشراف ٢٤٨/١ والجرح والتعديل م٣ ق١٤٢/٢ والبغدادي ٢٧٦/١ .

الفصل الثالث

شِعْرُ كَعْبٍ رَضِيَ اللّٰه عَنه

(١)
مَوضُوعَاتُ شِعْرِه

لم يتخذ كعب من الشعر صناعة يمتهنها ، أو سبيلاً لكسب العيش ، بل كل ما وصل إلينا مما نظمه كان في أغراض نفسه المؤمنة ، وملابسات حياته المسلمة ، فصدرت قصائده صدوراً طبيعياً ، كما يصدر الضياء عن الشمس ، والعطر عن الزهر .

فمجموع شعره لم يَعْدُ تأثيرات نفسية جاشت في صدره ، فتحركت بها قريحته ، ودفعته إلى التعبير عما يعتريه من ألوان العواطف والميول والأفكار .

ومع هذا فقد كان حريصاً على المحافظة على السير في طريق الأقدمين من حيث غاية الشعر ، فهو عنده ــ كما كان عند من قبله ــ ديوان العرب ، وسجل تأريخهم ، ومستودع أخبارهم وما لهم من مآثر تذكر وعادات تؤثر .

ومن هنا تحددت فنون شعره ، فاقتصرت على ما يلائم شخصه ، ويتفق والحياة التي كان يحياها ، فلا غرابة إن افتقدنا

بعض أغراض الشعر التقليدية التي درج عليها من جاء قبله من الشعراء ، كالغزل والخمريات ، فليس من المعقول أن يتبذل شاعر رسول الله عليه السلام ، فينظم شعراً في المجون والتهتك ، أو أن يتغنى بالمباذل والآثام ، بالإضافة إلى أن كعباً لم يُعرف بأنه عاش حياة ماجنة ليأتي على تصويرها في شعره .

فالأغراض التي نظم فيها إذن هي :

المديح ، ولكنه لم يمدح إلا من توفرت فيه مثله الإسلامية ، فكان مديحه إشادة بالرسالة والدعوة ، وحَمَلَة الدعوة الأُول .

والهجاء ، ولم يكن هجاؤه تسرعاً بالشعر إلى أعراض الناس ، أو قذفاً بألوان الشتائم والمساوىء ، بل هجاء لمن ضل عن طريق الحق ، وتنكب سبيل الهداية .

والفخر ولكنه لم يفخر على الناس بنفسه ، أو بما امتاز به قومه من شرف النسب ، وكرم المحتد ، تعالياً ؛ إنما كان فخره تغنياً بانتشار الدين ، وبما جاء به من مآثر أخلاقية ومكارم إنسانية .

والرثاء ، ولم يثبت من رثائه شيء قاله في أحد من ذويه ، بل كان وقفاً على من تمثلت فيهم فكرته الدينية ، وإرادته الخيرة ، كالرسول عليه الصلاة والسلام ، وعثمان وحمزة ، ومن استشهد من الصحابة في معارك الاسلام الأولى .

وقد نظم بعض القصائد ناقض فيها شعراء الكفر ، الذين هاجموا الاسلام ، وتصدّوا للرسول عليه السلام ودعوته ، أمثال ابن الزِّبَعْرَى وابن العاص وضرار بن الخطاب .

هذه هي الأغراض التي يدور حولها شعر كعب ، ولكن لايعني هذا أنه لم يقل في غيرها شيئاً ، فكثيراً ماتقع على البيت أو البيتين في ثنايا قصائده التي نظمها في الأغراض السابقة ، يصف فيها ، أو يجري الحكمة بها على لسانه ، ولكن الأغراض التي ذكرناها هي التي غلبت على شعره .

والذي يُلاحظ على فنون شعره أنها متداخلة في القصيدة الواحدة ، ومن الصعوبة أن نعد قصيدة معينة في أحد الأبواب التي ذكرناها ، فهو يفخر ثم يهجو ، أو يمدح ثم يعود إلى الفخر وهكذا ، وقد يختلط كل ذلك بالوصف أحياناً .

* * *

الفخر :

وهو عند كعب على نوعين : فردي ذاتي ، يتحدث فيه عن فضائله ، ويبين ما يمتاز به من كريم الخصال ومحمود الصفات . وجماعي ، يوضح محاسن قومه ، ويجلّي مآثرهم ويشيد بهم ، أو يتحدث عن جماعة المسلمين الذين آمنوا بالدين الجديد .

وإذا نظرنا في فخر كعب ، وجدناه ـ في غالبيته العظمى ـ من النوع الجماعي ؛ فقد أذاب كعب شخصه في المجموعة الجديدة التي ارتضاها بدلاً من أسرته وعشيرته ، وهي مجموعة من آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً . فلم يسلك سبيل الفخر الذاتي كثيراً ، ولم يطل في ذكر مزاياه ، أو يكثر في الفخر بآبائه وأجداده ، والتغني بمآثر قبيلته ، وإذا ورد شيء من ذلك فهو في حدود المعقول ، ونزر لايكاد يزيد على أبيات معدودة .

ويستغرق الفخر من شعر كعب أكثره ، وقد تطور هذا الفن على يديه ، وأيدي إخوانه من الشعراء الاسلاميين تطوراً كبيراً ، يمكن أن نلمسه إذا استقصينا المآثر التي فخر بها هؤلاء الشعراء ، فلم يعد يفخر أحدهم بإعلاء كلمة القبيلة ، او رفع شأنها ، أو كسب المغنم ، وسبي الأعداء ، بل بنيل الشهادة في سبيل الله ، وتأييد الملائكة لهم في القتال ، وانتصار جند الله .

ويمكن أن نلاحظ هذه المعاني واضحة في فخر كعب بيوم بدر :

ويومَ بـدرٍ لقيناكم لنـا مـددٌ
فيه مـع النصر ميكالٌ وجبريـلُ
إن تقتلونـا فـدينُ الله فطرتنـا
والقتل في الحق عند الله تفضيل

ويفخر بذود المشركين عن الكفر ، وبإعانة الله للمسلمين، وحفظه وهدايته لهم فيقول :

يذودوننا عـن ديننـا ونذودهـم
عن الكفـر والرحمن راءٍ وسامعُ
إذا غايظونـا في مقـام أعاننـا
على غيظهم نصر مـن الله واسع
وذلك حفـظ الله فينـا وفضلـه
علينا ومن لم يحفظِ الله ضائـع
هدانا لـدين الحق واختاره لنـا
ولله فـوق الصانعـين صنائـع

ويفخر بالذود عن الرسول عليه السلام ، وبالدفاع عنه باللسان

والسنان ، وببذل النفس في ذلك ، وبالإيمان بما جاء به الاسلام من عقائد ، فيصف كل واحدٍ من قومه بقوله :

يذود ويحمي عن ذمار محمدٍ
ويدفع عنه باللسان وباليدِ
وينصره من كل أمر يريبه
يجود بنفس دون نفس محمدِ
يصدّق بالانباء بالغيب مخلصاً
يريد بذاك الفوز والعز في غدِ

ولم يمنع هذا أن يفخر كعب ببعض المآثر التي كان يفخر بها الجاهليون ، فإن الاسلام أقرّ كثيراً مما تعارفت العرب على الاعتزاز به ، كالقوة والكرم . قال يوم خيبر :

ونحن وردنا خيبرا وفروضها
بكل فتى عاري الأشاجع مذود
جواد لدى الغايات لاواهن القوى
جريء على الاعداء في كل مشهد
عظيم رماد القدر في كل شتوة
ضروب بنصل المشرفيّ المهند

ويمتزج أكثر فخره بحماسة يستمدها من كونه فارساً ، وهو في هذا الفخر يتحدث عن شجاعته وبطولته ، كما كان يفعل شعراء الجاهلية ، ففي رده على « مرحب » اليهودي يدلل على هذه البطولة بقوله :

قد علمت خيبرُ أنيَ كعب
مفرّج الغمَّى جريء صلب

إذ شبت الحرب تلتها الحرب
معـي حسام كالعقيـق عضـب
نطـاكم حتـى يـذل الصعـب
نعطي الجـزاء أو يفـيء النهـب
بكـف ماضٍ ليس فيه عتـب

ويتحدث عن بلائه وبلاء المسلمين في الحرب ، وشجاعتهم في المعارك ، وتقتيلهم للعظماء ؛ حديث شعراء الجاهلية الذين يجعلون ذلك من مفاخرهم قال :

فسـاروا وسرنـا فالتقينـا كأننـا
اسودُ لقـاء لا يرجّى كليمُهـا
ضربناهم حتى هـوى في مكرنـا
لمنخـر سوء من لـؤيّ عظيمهـا

وإمعاناً في الفخر ، أكثر من التباهي بقتل السادة الأبطال ، حماة الذمار ، كرام الحسب ، وهو مسلك المغاوير في العصر الجاهلي أيضاً :

فكم تركنـا بها مـن سيد بطـل
حامي الذمار كريم الجد والحسب

ومن المعاني الجاهلية التي فخر بها أيضا ، الصبر في الحرب ، والثبات عند الشدائد ، التي يتزلزل لها كل من عداهم من الناس قال :

ولكن ببـدر سائلـوا مـن لقيتم
من الناس والأنبـاء بالغيب تنفـع

وإنا بأرض الخـوف لو كان أهلها
سوانا لقـد أجلوا بليـل فأقشعوا

إذا جاء منـا راكـب كان قولـه
أعدوا لما ُيزجي ابن حَرْب ويجمع

فمهما يهـم النـاس ممـا يكيدنـا
فنحن لـه من سائر النـاس أوسع

فلو غيرنـا كـانت جميعا تكيـده
البرية قد أعطوا يداً وتوزعـوا

نجالد لا نبقي علينـا قبيلـة
من الناس إلا أن يهابوا ويفظعـوا

وفي معركة أحد صور صبر المسلمين أروع تصوير ، على حين كانت رايات المنية تخفق فوق رؤوسهم ، واللئام تهرب وتفر ذعراً ، لأن الصبر من سجايا المسلمين ، والثبات من شيمهم قال :

ألا أبلغا فِهْراً على نأي دارهـا
وعنـدهمُ من علمنـا اليـوم مَصْدَق

بأنـا غـداة السفـح مـن بطن يثرب
صبرنـا ورايـات المنيـة تخفـق

صبرنـا لهـم والصبر منـا سجيـة
إذا طـارت الأبـرام نسمو ونرْتَقُ (١)

---

(١) الأبرام : اللئام . ونرتق : نسد ونصلح .

وأولع بذكر الحرب ، وافتخر بالانتساب إليها ، وذكر آداب المسلمين فيها ولكنه لم يأت بجديد في ذلك ، قال :

بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله
ولا نحن مما جرت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفُحش
ولا نحن من أظفارها نتوجع

ويكرر هذه المعاني فيقول من قصيدة أخرى :

إنا بنو الحرب نمريها وننتجها(١)
وعندنا لذوي الأضغان تنكيل

أما الاستشهاد في الحرب فهو غاية ما يتمناه كعب ، لأنه القتل الذي يفضل الله به عباده المؤمنين ، وهذا المعنى جديد على الفخر ، لم يسبق إليه الشعراء الجاهليون :

إن تقتلونا فدين الله فطرتنا
والقتل في الحق عند الله تفضيل

وفخر بأنه من قوم لا يرون في القتل عيباً ، ولا في الفرار صواباً ، فهم يطلبون الموت ، ويقلون الفرار ، وإن كانت فيه حياتهم قال :

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
على أحد يحمي الذمار ويمنع
ولكننا نقلَى الفرار ولا نرى
الفرار لمن يرجو العواقب ينفع

---

(١) نمريها : نستدرها . وننتجها : من النتاج .

ومعروف أن هذه المعاني مما كان يفخر به الجاهليون أيضاً .

وحين كان يفخر بالمعارك والحروب كان يأتي على أدواتها ، فيصف خيول المسلمين فهي كالأسود شجاعة ، عارية القوائم ، مكتنزة اللحم ، نشيطة كأنها كلاب الصيد الضارية ، تردي العدو وتعود بأسلابه ، خفيفة في الحروب عابسة عند لقاء العدو ، ولا تقتصر فائدتها على الحروب بل تتعداها إلى أوقات السلم ، فتحمي المواشي ، وتصون الكلأ ، فهي للحفظ في السلم كما كانت للدفاع والإغارة والهجوم عند الحرب . قال :

ونزائعاً مثل السراح نمى بها
علف الشعير وجزة المقضاب(١)
عرى الشوى منها وأردف نَحْضُها
جرد المتون وسائر الآراب(٢)
قوداً تراح إلى الصباح إذا غدت
فعل الضراء تراح للكلاب(٣)
وتحوط سائمة الديار وتارة
تردي العدا وتؤوب بالأسلاب

---

(١) النزائع : الخيل العربية حملت من أرض أخرى . السراح : الذئاب .

(٢) الشوى : القوائم ، النحض : اللحم ، جرد المتون : ملس الظهور ، الآراب : الأعضاء .

(٣) قوداً : طويلة العنق . والضراء : الكلاب الضارية في الصيد .

حوش الوحوش مطارة عند الوغى
عبس اللقاء مبينة الأنجاب(١)
علفت على دعة فصارت بدّنا
دخس البضيع خفيفة الأقصاب(٢)

وكما وصف الخيل في فخره ، أتى على وصف ما كان مستعملاً من عدة الحرب ، فالقسي التي يستعملها قومه في الحروب مصنوعة من أحسن أنواع الخشب ، وهو خشب النبع ، الذي ينبت في قمم الجبال ، وسهامهم مرشوشة بالسم ، لتصيب مقتلاً ممن تصوّب إليه . قال :

تهادى قِسيُّ النبع فينا وفيهم
وما هو إلا اليثربي المقطّع
ومنجوفة حرمية صاعدية
يذرّ عليها السم ساعة تصنع(٣)
تصوب بأبدان الرجال وتارة
تمر بأعراض البصار تقعقع(٤)

وللسيوف مكانتها في فخر كعب ، فهي كقطع النيران بأيدي المسلمين ، وبها تهلك العدا ، وتتبدد الجموع قال :

---

(١) الحوش : النافرة . والمطارة : المستخفة .
(٢) البدن : جمع بادن وهو السمين . ودخس : كثيرة اللحم .
(٣) والصاعدية : نسبة إلى صعدة في اليمن .
(٤) البصار : الحجارة اللينة .

وقد عريت بيض خفاف كأنها
مقابيس يزهيها لعينك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
وكان يلاقي الحين من هو فاجر

وهي بيض صارمة ، يطأ المسلمون بها كل مشرك :

فساروا وسرنا فالتقينا كأننا
أسود لقاء لا يرجّى كليمها
ضربناهم حتى هوى في مكرنا
لمنخر سوء من لؤي عظيمها
فولّوا ودسناهم ببيض صوارم
سواء علينا حلفها وصميمها

وقد روت كثير من كتب الأدب قول كعب :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
قدماً ونلحقها إذا لم تلحق

وجعله بعضهم أكرم بيت وصف به رجل قومه في حرب ، وعده بعضهم الآخر أمدح بيت قالته العرب في الشجاعة ، وقيل عنه : أشجع بيت قالته العرب ، وأنه من الأبيات التي لا مثيل لها . وأوضح الجاحظ في البيان والتبيين سر الفخر في هذا البيت بقوله : والفارس يخبر عن قصر سيفه ليخبر عن فضل نجدته كقول كعب. وذكر بيته السابق .

وأتى على ذكر الرماح ، وتواليها على الأعداء ، تاركة طعنات متسعة ، كأنها أفواه القرب السائلة قال :

شددنـــا بحول الله والنصـــر شـــدة
عليكـــم وأطـــراف الأسنـــة شرّع
تكـــر القنـــا فيكـــم كـــأن فروعهـــا
عَـــزَالى مـــزاد ماؤهـــا يتهـــزّع

وتحدّث عن الدروع في مجال فخره ونعتها بخـــير ما ينعت به شاعر درعه ، فهي واسعـــة فضفاضة كما يقول :

ترانـــا في فضافض سابغاتٍ كغدران المـــلا متسربلينا(١)

وتطرّق إلى البَيْضة في معرض فخره أيضاً ، فوصف مقدمتها باللمعان ، وهي الصفة التي يفخر بهـــا الشعراء عند تحدثهم عـــن البيضة قال :

مجالدنا عن ديننا كل فخمة مذربة فيها القوانس تلمع(٢)

* * *

المديح :

المديح في شعر كعب غير كثير باعتباره مظهراً من مظاهر الأبهـــة والتعاظم والكبرياء ، وكل هذه الصفات مما نهى عنه الدين ، بـــل أوصى بضدها ، فالنبي عليه السلام لم يكن راغباً في أن يمتدحـــه الشعراء بما كان يمتدح به الملوك ، بل كان همه أن ينصرف الشعراء إلى التأكيد على أمور الدين الجديد ، والعمل على نشره بين الناس والتمكين له في الأرض ،وكذلك كان موقف من جاء بعده من الخلفاء الراشدين ، فلم يعرف عن أحـــد منهم أنه كان يتخذ مجلسه ندوة

(١) المـــلا : المتسع من الأرض .

(٢) الفخمة : الكتيبة العظيمة .

للشعراء، يتبارون في مدحه استزادة في عطائه ــ كما حصل فيما بعد ــ لذلك كان أغلب ما جاء من مديح كعب سياسياً ، فهو إلى جانب العاطفة الدينية التي تسيطر عليه ، كانت له أهداف سياسية ، آمن بها الشاعر ويريد لمبادئها الانتشار بين الناس :

ومن هذه المبادىء الإيمان بقيادة الرسول عليه السلام الحكيمة والانقياد لها، وتأكيد فضلها على الأمة، إذ جمع أمرها بعد تفرق وأصلحه بعد خلل ،وإلى ذلك يشير كعب في مدحه للرسول عليه السلام :

لمّ الإله به شَعْثاً ورمّ به ... أمور أمته والأمر منتشر

ومن هذه المبادىء التي كان يؤكد كعب عليها في مدحه ، هداية الرسالة الإسلامية ، على نحو ما نرى في قوله :

فينا الرسول شهاب ثم يتبعه
نور مضيء له فضل على الشهب
بدا لنا فاتبعناه نصدقه
وكذبوه فكنا أسعد العرب

وفي قوله أيضاً :

أطعناه لم نَعْدِلْه فينا بغيره
شهاباً لنا في ظلمة الليل هادياً

ومن هذه المبادىء صلة الرسالة بالسماء وأنها من أمر الله قال :

وفينا رسول الله نتبع أمره ... إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلّى عليه الروح من عند ربه ... ينزّل من جو السماء ويرفع

وكعب يصور مثله الأعلى من خلال مدحه وتعديده لصفات الممدوح ، شأنه في ذلك شأن من يصطنع المديح لأجل فكرة آمن بها وعقيدة التزم مبادئها ، لذلك جاء مديحه متأثراً إلى حد بعيد بما جاء به الاسلام من مناقب تختلف عما يمدح به الشعراء الجاهليون، ومن هذه المناقب الجديدة ، العدل في السيرة ، والالتزام بالحق ، والهداية إلى ما ينجي من النار ، ومن ذلك قوله في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

الحق منطقه ، والعدل سيرته فمن يجبه إليه يَنْجُ من تَبب

ومن هذه المناقب التي تحلّى بها الرسول عليه السلام ، أن اتباعه هداية ورشد ، والصد عنه كفر وضلال :

فمن يَتْبعه يَهْدَ لكل رشد ومن يكفر به يُجْزَ الكفور

ومن مناقبه عليه السلام الصدق في الإنذار وتبليغ الرسالة :

نذيرٌ صادق أدّى كتابه وآيات مبيِّنة تنير

وامتدحه عليه السلام بإثبات معجزاته ، ومقارنتها بما كان للأنبياء عليهم السلام منها ، وفي ذلك يقول :

وإن تك نمل البرّ بالوهم كلمت
سليمان ذا الملك الذي ليس بالعمي
فهذا نبيّ الله أحمد سبَّحت
صغارُ الحصى في كفه بالترنم

وفي هذا الصدد يقول أيضاً :

فإن يك موسى كلَّم اللهَ جهرةً
على جبل الطور المنيف المعظَّم

فقـد كلــم الله النبــي ّ محمـداً
على الموضـع الأعلى الرفيـع المســوّم

* * *

أما المعاني الجاهلية التي مدح بها كعب ، فهي القيم التي كان يجلّها العرب ويحترمونها ، ولمـا جاء الإسلام أقرها ونمّاها، ومنها:

الوفاء بالعهد والمحافظة عليه في كل الأحوال،كالصدق في القول على نحو ما نرى في مدحه للرسول :

نمضي ويذمرنا عن غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب

وقوة العزم والهمة والإقدام والجرأة،كما في قوله يمدح الرسول ﷺ أيضاً :

نجد المقدم ماضي الهـم معتـزم حين القلوب على رجف من الرعب

والكرم ، ومن ذلك قوله في آل هاشم :

بيض الوجوه ترى بطون أكفهـم تندى إذا اغبر الزمـان الممحل

والسيادة ومن ذلك قوله في آل هاشم أيضاً :

قوم لأصلهم السيـادة كلهـا قِدَماً وفرعهم النبي ّ المرسل

* * *

أما ممدوحو كعب فلم يكونوا كثيرين كما رأينا ، لأنـه لم يتخذ من المديح وسيلة للرزق ، أو جمع الأموال ، ولم يصطنعـه ليكون سلماً يرقى به إلى ما يبغي من عرض الدنيا ومناصبها ، فكان كل من مدحه تتمثل فيه الفكرة التي آمن بها ، ووهب لها حياته وفنه ، فلا

غرابة أن يكون أولَ الممدوحين عنده صاحبُ هذه الفكرة ، ومبلّغ تلك الرسالة ، محمد ﷺ ، فمدحه له كان عن حب وإيمان وعقيدة ، تمنى أن يفديه بأغلى ما يملك الإنسان ، نفسه وماله قال :

وإني وإن عنفتموني لقائل فدىً لرسول الله نفسي وماليا

ولا نكاد نمر على قصيدة من قصائده دون أن نعثر على إشارة يختص بها رسول الله ﷺ أو آله الطيبين .

وطبيعي أن يكون ممدوحوه بعد رسول الله الصحابة الكرام فهم إخوانه في العقيدة ، ورفاقه في الجهاد ، وقد اختص نقباء العقبة بهذا المدح فنظم فيهم قصيدة في اربعة عشر بيتاً .

* * *

الهجاء :

الهجاء كالمديح والفخر ، يكون فردياً خاصاً بشخص معين ، أو جماعياً يشمل القبيلة والقوم والجماعة . ولم ينصرف أكثر شعراء الجاهلية إلى تخصيص الهجاء في قصيدة متكاملة مستقلة ، يقتصر فيها على موضوع الهجاء فقط ، بل كانوا يلمون به من خلال ما ينظمون من قصائد تشمل الكثير من الأغراض الشعرية .

واستمر على ذلك من جاء بعدهم من شعراء صدر الإسلام ، ومنهم كعب ، الذي نلاحظ على هجائه امتزاجه بالفخر والحماسة والمديح ، وقلّما نعثر على قصيدة هجائية مستقلة في شعره .

أما معاني هجائه ؛ فهي المعاني السلبية التي تقابل المثل والمناقب، التي كان يبني عليها معاني مدحه ، وهذا الأسلوب هو اهجى الأساليب ، فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى ؛ كما يقول قدامة بن جعفر .

وطبيعي أن تكون هذه المعاني مما يأنفه العربي ، وتنكره بيئته ، ومن هذه المعاني التي عيّر بها خصومه : الإعجاب والتكبر ، واقترانهما بالهزيمة في الحرب ، وقد هجا قريشاً بذلك في قوله :

لعَمْرُ ابيكما يا ابنَيْ لؤيٍ ... على زهو لديكم وانتخاء (١)
لما حامت فوارسكم ببدر ... ولا صبروا به عند اللقاء

ومن هذه المعاني نقض العهد ، نحو قوله يعير بني جعفر في حادثة بئر معونة :

تركتم جاركم لبني سليم ... مخافة حربهم عجزاً وهوناً
فلو حبلاً تناول من عقيل ... لمدّ بحبلها حبلاً متيناً
أو القرطاء ما إن أسلموه ... وقِدْماً ماوفوا إذ لا تفونا

ومن معاني هجائه ، ضعة النسب ، وانحطاط الخلق ، ولؤم الطبع . نحو قوله في هجاء ابن الزِّبَعْرَى :

سألت بك ابن الزبعرى فلم ... انبأك في القوم إلا هجينا
خبيثاً تطيف بك المنديات ... مقيماً على اللؤم حيناً فحينا

بالإضافة إلى هذه المثالب التي يعير بها كعب المشركين ، كان يعيرهم بالوقائع والأيام والألقاب ،فعن محمد بن سيرين قال : فكان يهجوهم من الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم،بالوقائع والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . قال : فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ،

---

(١) الانتخاء : الإعجاب والتكبر .

وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا ، وفقهوا الإسلام كان أشد القول قول ابن رواحة .

ومن هذه المعاني الجبن والضعف ، ومن مظاهر ذلك ، التخلي عن اللواء في ساحة الحرب والتخاذل فيها . نحو قوله في قريش :

عمدنا إلى أهل اللواء ومن يطر
بذكر اللواء فهو في الحمد أسرع
فخانوا وقد اعطَوا يداً وتخاذلوا
أبى الله إلا أمره وهو أصنع

ومن تعييره بالأيام ، ما خاطب به قريشاً مذكراً إياهم بيوم بدر . قال :

ولكن ببدر سائلوا من لقيتم
من الناس والأنباء بالغيب تنفع

ومن ذلك قوله :

فسائل بني بدر إذا ما لقيتهم   بما فعل الإخوان يوم التمارس

وهذه الصورة التي طبع بها هجاء كعب للمشركين هي الصورة التي طبع بها هجاء قريش للمسلمين ، ولم ينه الرسول عليه السلام شعراءه عن هذا النهج في الهجاء ، بل ثبت انه كان يأمرهم به ، ويحثهم عليه كما في قوله : (قولوا لهم مثل ما يقولون لكم) . وذلك لأن هذا النهج هو الذي كان يؤثّر في المشركين ، ويخوفهم ، أما التعيير بالشرك ، وعبادة الأوثان ، فلم يكن يجدي نفعاً في هذا المقام ، لأن ذلك كان عقيدتهم التي يعتزون بها ، ودينهم الذي هم عليه .

وسلك كعب سبيل التهديد والوعيد في هجائه أيضاً ، فكان هذا الأسلوب يترك أكبر الأثر في نفوس المشركين ، ويرعبهم ، فقد روي أن قبيلة دوس أسلمت فَرقاً من تهديده الذي ورد في قوله :

قضينـــا من تهامـــة كل ريب وخيبر ثم أجممنا السيوفا

نخيرها ولـــو نطقت لقالت قواطعهـــن دوساً أو ثقيفـــا

فقالت دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نـــزل بثقيف .

ويروى أن الرسول عليه السلام كـــان يكبر أســـلوب كعب التهديدي في الهجاء ، وأثره في قريش . فحين سمعه ينشد البيتين السابقين قال : لهو أسرع فيهم من السهم في غَلَس الظلام .

ويروى كذلك أنه قال له : والذي نفسي بيده ؛ لهي أشد عليهم من رشق النبل .

وقد عيَّر قريشاً بالألقاب التي كانت تتألم منها . نحو قوله :

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلبـــن مغالـــب الغـــلاب

وعندما سمع رسول الله بيته السابق قال له : لقد شكرك الله ياكعب على قولك هذا . وفي رواية أنـــه قال لـــه : ياكعب ما نسي ربـــك أو ما كان نسياً بيتاً قلتـــه ، قال كعب : ومـــا هو يارسول الله ؟ فقال : انشده يا أبا بكر ، فأنشده البيت .

ومع أن هذا النوع من الهجاء هو الغالب على هجاء كعب ، فإن طريقته لا تطّرد دائماً ، فقد سلك أحياناً سبيل التعيير بالشرك ، وعبادة الأوثان ، وسوء المنقلب ، مستلهماً في ذلك آيات القـــرآن الكريم ، والمفاهيم الإسلامية الجديدة . ومنه قوله :

فكبّ أبو جهل صريعاً لوجهه
وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغى
وما منهم إلا بذي العرش كافر
فأمسَوا وقود النار في مستقرها
وكل كفور في جهنم صائر

* * *

ومما يميز هجاء كعب ؛ عفة ألفاظه وبعد معانيه عن الفحش والفجور ، فقد كان له من قوة الإيمان ، وصدق العقيدة ، ما عصمه من الانحدار إلى أسلوب السباب والاقذاع . ومما يعاب على الشاعر أن يسلك هذه السبيل في الهجاء ، لأنه أضعف انواع الهجاء من الناحية الفنية كما يقول صاحب الوساطة .. إن القذف والإفحاش سباب محض ، ليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن ؛ ولذلك ترفّع عنه كعب ، فلم نعثر في شعره على كلمة مشينة ، أو معنى فاحش .

* * *

ومما ميز هجاءه أيضاً أنه كان يسلك أحياناً سبيل السخرية والتهكم والاستهزاء بالمهجو ، ومعروف أن هذا الأسلوب في الهجاء أبلغ أسلوب ، وسبيله أكثر إيلاماً في نفس المهجو . ذكر صاحب الوساطة : وابلغ الهجاء ما جرى مجرى الهزل والتهافت .

وفي هجائه لأبي سفيان في غزوة السويق صورة لهذا الأسلوب ، فقد صور منزل قريش على ضخامته بما لايزيد عن منزل دويبة صغيرة أشبه بالثعلب قال :

يـا لهف أم المسبحين علـى
جيش ابن حرب بالحرة الفشل
اتطرحون الرجـال من سنم الظ
ـهر ترقّى في قنـّـة الجبـل
جـاؤوا بجيش لو قيس منزله
مـا كان إلا كمعرس الدئـل(١)

وسلك الأسلوب ذاته عندما شبه بني لِحْيان بالحيوان الصغير الضعيف الذي دخل شِعْباً ليس له مخرج . قال :

لو أن بني لحيـان كانوا تناظروا
لقوا عَصباً في دارهم ذات مصدق
لقـوا سرعانا يمـلأ السرب روعـه
أمـام طحـون كالمجـرّة فيلـق
ولكنهم كـانوا وبـاراً تتبعت
شعـاب حجاز غير ذي مُتَنَفَّـق

* * *

وخصوم كعب الذين صب عليهم سهام هجائه هم انفسهم أعداء الإسلام من المشركين ، ومَن والاهم من اليهود .

وطبيعي أن تتعرض قريش لهجائه في أكثر المواطن ـ كما رأينا ـ وتعرضت لهجائه بعد قريش بنو النضير ، فأبو براء ، فأبو سفيان ابن حرب ، فابن الزبعرى ، فبنو لحيـان ، فهند بنت عتبة ، فبنو

---

(١) الدئل : دويبة تشبه الثعلب .

جعفر بن كلاب ، فأبو عامر الملقب بالراهب ، ثم وحشي قاتل حمزة، وبنو قريظة وأبو سفيان بن الحارث، وأخيراً أبو جهل .

* * *

النقائض :

المناقضة في الشعر تعني أن ينقض شاعر ما قاله شاعر آخر ، ويجيء بضد ما جاء به الأول . وقد تطوّر أسلوب المناقضة حتى جعل من فن المتناقضين في العصر الأموي فناً متقارباً إلى درجة كبيرة ، فهو يفرض على الشاعر الثاني قيوداً ينبغي عليه أن يلتزم بها ، فلا بد له من أن يقول في نفس موضوع الشاعر الأول ، وأن يلتزم بقافية قصيدته ، وبحرها ورويّها ، ثم بنقض معاني تلك القصيدة ، واحداً تلو الآخر (١).

وحين جاء الإسلام انقسم الشعراء إزاءه إلى طرفين متناقضين: فريق مع الرسول عليه السلام والآخر عليه . أما الفريق الأول فكان يمثله كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، والفريق الآخر يمثله شعراء قريش ومن والاهم من المشركين واليهود . وطبيعي أن تقوم بين هؤلاء الشعراء حرب كلامية ، اتخذت في أكثر الأحيان صورة المناقضات الشعرية ، وفي بعض الأحيان صورة المراجزات . ولكعب في هذا الميدان عدة قصائد ، ناقض بها شعراء الكفر ، بلغ عددها ست نقائض ، أطولها في ستة وأربعين بيتاً ، واقصرها في أربعة أبيات ، وله مراجزتان في هذا الميدان أيضاً ، فقد

---

(١) انظر الشايب : تاريخ النقائض في الشعر العربي ص ٣ . ومحمود غناوي الزهيري : نقائض جرير والفرزدق ص ١٣ .

تصدّى لضرار بن الخطاب فنقض ما قاله في بدر ، ولأبي سفيان بن حرب في غزوة السويق ، ولعمرو بن العاص في أحد ، ولعباس بن مرداس في غزوة بني النضير ، ثم لعبد الله بن الزِبَعْرى في الخندق .

* * *

وقد تميزت هذه النقائض بعدة خصائص يمكن إجمالها في : سمو الموضوعات التي عالجتها ، ونبل الغاية التي قصدت إليها فموضوعاتها هي الإسلام ودعوته ، وغايتها إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الكفر إلى سَعَة الإسلام ، فغاية المسلم حين يقاتل رفع كلمة الله ، وهدفه توحيده ، وإلى هذا المعنى يشير كعب في مناقضته لضرار بن الخطاب يوم بدر :

فلما لقيناهم وكل مجاهد
لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لارب غيره
وأن رسول الله بالحق ظاهر

وإذا دافع المسلمون ، فإنما يدافعون عن دينهم ضد كل عدو، مهما عظمت كتيبته ، ومهما كانت معتادة للقتال مدربة عليه ، قال :

مجالدنا عن ديننا كل فخمة
مذربة فيها القوانس تلمع

* * *

أما معاني نقائضه فهي على نوعين : إسلامية جديدة ، كالإيمان والكفر ، والجنة والنار، والوحي والملائكة . وأخرى قريبة من المعاني

الجاهلية ، تعالج المآثر والأحساب ، والمثالب والأيام ، والتهديد والوعيد .

فمن المعاني الإسلامية ما ورد في مناقضته لضرار بن الخطاب يوم بدر :

فكَبّ أبو جهل صريعاً لوجهه
وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغى
وما منهم إلا بذي العرش كافر
فأمسَوا وقود النار في مستقرها
وكل كفور في جهنم صائر

وتتضح هذه المعاني أيضاً في مناقضته لهبيرة بن أبي وَهْب :

وفينا رسول الله نتبع أمره
إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه
يُنزّل من جو السماء ويرفع

وهذه المعاني الإسلامية كثيرة مبثوثة في جميع نقائضه .

أما المعاني الجاهلية فهي كثيرة أيضاً منها ماجاء في قوله الذي ناقض به هبيرة، معدداً مآثر قومه ، مفتخراً بهم إلى درجة المبالغة ، مهدداً ومتوعداً المشركين، وهذه المعاني جميعها جاهلية طبعاً ، يقول:

وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها
سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله
أعدوا لما يُزجي ابن حرب ويجمع

فمهمـا يهمّ النـاس ممـا يكيدنا
فنحن لـه من سائر الناس أوسـع
فلو غيرنا كانت جميعاً تكيده البري
ـة قـد أعطَـوا يـداً وتوزعـوا
نجـالد لا تبقـى علينـا قبيلـة
من الناس إلا أن يهـابوا ويفظعـوا
ولما ابتنوا بالعرض قـال سراتنا
علام إذا لم نمنع العرض نزرع ؟

ويقول في نفس القصيدة :

ونحن أنـاس لانرى القتـل سبـة
على كل من يحمي الذمـار ويمنع
جلادٌ على ريب الحـوادث لا نرى
على هالك عيناً لنـا الدهر تدمـع
بنـو الحرب لانعيـا بشيء نقولـه
ولا نحن ممـا جرّت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحّش
ولا نحن مـن أظفـارهـا نتوجـع

ومن هذه المعاني التي فخر فيها بالأحساب ، والقوةوالسلاح، ما جاء في مناقضته لعمرو بن العاص :

من جذم غسان مسترخ حمـائلهم
لا جُبنـاء ولا مِيـل معـازيـل
يمشون تحت عمايات القتـال كما
تمشي المصـاعبة الأدم المراسيـل

* * *

وامتازت نقائضه بتكرار الفنون ، وتداخل بعضها في القصيدة الواحدة ، فهو يفخر ثم يمدح ثم يهجو ثم يعود إلى الفخر ثانية وبعده إلى الهجاء .... وهكذا .

ففي نقيضته لضرار بن الخطاب مثلاً نراه يفخر في أولها بالصبر والتوكل على الله فيقول :

وسائلة تسائل ما لقينا ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لانرى لله عِدلاً على ما نابنا متوكلينا

ثم ينتقل إلى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام فيقول :

وكان لنا النبي وزير صدق به نعلو البرية أجمعينا

وينتقل بعد هذا إلى هجاء المشركين ، فينعتهم بالظلم والعقوق ، والعداوة لله وللإسلام ، فيقول :

نقاتل معشراً ظلموا وعقّوا وكانوا بالعداوة مرصدينا

ثم يعود ثانية إلى الفخر فيقول :

ترانا في فضافض سابغات كغدران الملا متسربلينا

ويرجع أخيراً إلى الهجاء فيقول :

كما قد ردّكم فلّاً شريدا بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثمّ خيراً وكدتم أن تكونوا دامرينا

* * *

والميزة الأخرى هي أن كعباً لم يلتزم بجميع القيود التي فرضت في العصر الأموي حيث وصل فن النقائض إلى أوج كماله ، وإنما التزم أن

يقول في نفس موضوع الشاعر الذي يناقضه ، ونفس قافيته وبحره أما المعاني فلم يكن يلتزم بنقض معاني القصيدة الواحد تلو الآخر ، وإنما كان يحاول نقض المعاني العامة التي ترد في قصيدة الشاعر الآخــر .

* * *

وأخيراً فالذي يلاحظ على نقائض كعب أنها ظهرت بمجموعها في ظل الأيام الإسلامية : فواحدة قـالها في بـدر وأخرى في غزوة السويق وواحدة في أحد وواحدة في غزوة بني النضير ، واثنتان في الخندق . ولا غرابة في ذلك فهو فارس شجاع ، ساهم بسيفه الى جانب لسانه في الذب عن الإسلام وفي نشر دعوته .

* * *

ومعروف أن أهم مـا يعتمد عليه الشاعر في نقائضه ، نقض المعاني التي ترد في قصيدة الآخر ، وهناك عدة طرق يسلكها الشاعر للوصول إلى هذا الغرض منها :

التكذيب : فيكذب ما يدّعي الشاعر من مآثر محاولاً أن يجعل هذه المآثر له ولقومه بدل الشاعر وقومه .

والمقابلة : وهي أن يضع إزاء كل ما يدّعيه الشاعر الآخر من مفاخر ما يقابله .

والقلب : فيقلب الشاعر المعاني على قائلها .

والتوجيه : فيفسر الحادثة بما يؤيد موقف الشاعر .

والوعيد والشماتة : يهدّد بذلك الشاعر وقومه ، ويشمت بما ينزل بهم من مصائب ونكبات .

وقد سلك كعب اغلب هذه الطرق في نقائضه مع غلبة عنصر الوعيد على أكثرها ، فحين ناقض عمرو بن العاص الذي فخر بنصر قومه في أحـد ، وعجز المسلمين عن تحقيق هـذا النصر ، والتي يقول فيهـا :

خرجنا مـن الفَيْفـا عليهم كأننـا
مع الصبح من رضوى الحبيك المنطّق(١)
تمنّت بنو النجار جهلاً لقـاءنـا
لدى جنب سَلْع والأمانيُّ تَصدُق
فمـا راعهم بالشرّ إلا فجـأة
كراديس خيـل في الأزقـة تمرق
أرادوا لكيمـا يستبيحـوا قبابنـا
ودون القباب اليوم ضرب محـرق
وكانت قباباً أومنت قبـل ما ترى
إذا رامهـا قـوم أبيحوا وأحنقـوا
كـأن رؤوس الخـزرجيين غـدوة
وايمانهـم بالمشـرفيـة بَرْوَق

سلك كعب مسلك التوجيه في مناقضته له ، ولم يتخاذل لعدم انتصار المسلمين في أحد ، بل صور صبرهم وبلاءهم ، وذكر اعتزاز المسلمين بقيادة الرسول عليه السلام ، ذي الشمائل الكريمة . قال:

ألا أبلغـا فِهـراً على نأي دارهـا
وعندهم من علمنـا اليوم مَصْدَق

---

(١) الفيفا : القفر الذي لانبات فيه . ورضوى : اسم جبـل والحبيك : ذو الطرق . والمنطّق : المحزم .

بأنــا غداة السفح مـن بطن يثرب

صبرنــا ورايــات المنيــة تخفـق

صبرنا لهم والصبر منــا سجيــة

إذا طــارت الأبرام نسمو ونرتـق

على عــادة تلكم جرينــا بصبرنــا

وقِدْماً لدى الغايات نجري فنسبق

لنــا حومة لاتستطــاع يقودهــا

نبي أتى بالحـق عـفّ مصـدق

ثم راح يقــابل ، فسلك مسلك الموازنة حين ناقض فخر ابن العاص بتقتيل المسلمين فقال :

ألا هــل أتى أفنــاء فهر بن مــالك

مقطـع أطراف وهــام مفلّــق

وفي بدر ناقض ضرار بن الخطاب ، الذي توعد المسلمين بجولة أخرى ، منكراً على الأنصار فخرهم بانتصــارهم ، عــازياً سبب الانتصار إلى قيادة الرسول ومن معه من المهاجرين ، لا إلى بطولة الأنصار من حول الرسول ، وقصد ضرار واضح طبعا ، فهو يريد أن يحول النصر الذي حققه المسلمـون ــ أنصارهم ومهاجروهم ــ إلى قريش التي ينتمي إليها الرسول والمهاجرون ، ليجرد الأنصار من هذه الفضيلة ، قال ضرار :

فإن تك قتلى غودرت من رجالنــا

فإنــا رجــال بعدهم سنغــادر

وتردى بنا الجُرْد العناجيج وسطكم
بني الأوس حتى يشفي النفس نائر (١)
ووسط بني النجار سوف نكرها
لها بالقنا والدارعين زوافر (٢)

إلى أن يقول :

فإن تظفَروا يوم بدر فإنما
بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه
يحامون في اللأواء والموت حاضر
يعدّ أبو بكر وحمزة فيهم
ويدعى علي وسط من أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمان منهم
وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر
أولئك لا من نتّجت في ديارها
بنو الأوس والنجار حين تفاخر

فعمد كعب إلى هذين المعنيين فنقضهما ، سالكاً في نقض الأول سبيل التكذيب ، إذ جمع المشركون في بدر وحشدوا كل ما استطاعوا ومع ذلك كان النصر حليف المسلمين ، فعلام هذا الادّعاء الطويل والضجيج الصاخب الذي اصطنعه ضرار ؟

---

(١) تردى : تسرع ، والجرد : الخيل القصيرة الشعر . والعناجيج : جمع عنجوج وهو الطويل السريع .

(٢) الزوافر : جمع زافرة وهي الحاملة للتنقل .

عجبت لأمر الله والله قادر
على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشراً
بغَوا وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم
من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا
بأجمعها كعب جميعاً وعامر

أما لنقض المعنى الثاني فقد سلك سبيل القلب، وفخر بالرسول عليه السلام، وتأييد الأنصار له، وعيّر قريشاً لصدهم عن سبيل الهداية، وتوليهم عن الاستجابة لما دعاهم إليه الرسول عليه السلام من الخير.

وفينا رسول الله والأوس حوله
له معقل منهم عزيز وناصر
وَجمع بني النجار تحت لوائه
يمشّون في الماذيّ والنقع ثائر

وبعد أن فخر بشجاعة المسلمين وإقدامهم قال:

وكان رسول الله قد قال أقبلوا فولّوا وقالوا إنما أنت ساحر

وزاد على نقضه هذين المعنيين، بأن اظهر شماتته بقتل رؤوس الكفر في بدر حيث قال:

فكبّ أبو جهل صريعاً لوجهه
وعتبة قد غادرنه وهو عاثر

وشيبة والتيمي غـادرن في الوغى
وما منهم إلا بذي العرش كـافر

* * *

وكما ناقض كعب غيره من الشعراء فقد ناقضه شعراء آخرون أيضاً ، فحين نظم جيميته التي بكى فيها حمزة وقتلى أحد من المسلمين ، تصدى له ضرار بن الخطاب فنقض ما نظمه بقصيدة مطلعها :

أيجزع كعب لأشياعـه ويبكي من الزمن الأعـوج

وكذلك ناقضه سمال اليهودي حين نظم رائية يذكر فيها إجلاء بني النضير ، وقتل كعب بن الأشرف بقصيدة مطلعها :

أرقت وضافني همٌ كبير بليل غيره ليل قصير

* * *

أما نظم كعب في هذا الباب من الرجز ، فكان مراجزتين ، الأولى منهما حينما كان النبي عليه السلام في مسير فقال لسلمة بن الأكوع : « انزل هات من هَنَاتك » فنزل سلمة يرتجز ويقول :

لم يغذها مدٌ ولا نصيف
ولا تميرات ولا تعجيف(١)
لكن غذاها اللبن الخريف
المحض والقارص والصريف

---

(١) نصيف : النصف .

فلما سمعته الأنصار يذكر التميرات ، والمد والنصيف ، علموا أنه يعرّض بهم ، فاستنزلوا كعب بن مالك ، فقالوا : يا كعب انزل فأجبه .

فنزل كعب يرتجز وهو يقول :

لم يغذهـا مد ولا نصيف ولا تمـيرات ولا تعجيف
لكن غذاهاحنظـل نقيف ومذقـة كطـرة الخنيف
تبيت بين الزرب والكنيف

فقال النبي عليـه السلام : « اركبا اركبا » مخافـة أن يجري بينهما شيء .

وبذلك نقض ما تصوره الأنصار تعريضاً بهم ، وسلك في هذا النقض أسلوب المقابلة ، فشاعر قريش لم يزد عن ذكر التميرات ، فقابلهاكعببتعريض أشد منه وأقسى ، فذكر الحنظل المنقوف(١)ثم ذكر المذقة (٢) ولم يكتف بذلك فادّعى أن تلك المذقة كانت مماتعلفه الشـاة والإبـل في الزرب والحظائر لا بالكـلأ والمرعى ، لأن مكـة لارعي بهـا .

والمراجزة الاخرى ، كانت عندما خرج مرحب اليهودي من حصنهم يرتجز :

قـد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضـرب إذا الليوث أقبلت تَحَرَّب
إنّ حمـايَ للحمى لا يُقربُ

---

(١) إن قريشاً وثقيفاً كانتا تتخذان من الحنظل أطبخة فعيرهم بذلك .

(٢) المذقة : هي الشربة من اللبن المذوق ، شبههـا بحاشية الكتان الرديء لتغير لونها .

وهو يقول : من يبارز ؟ فأجابه كعب بمفاخر تقابل ما افتخر به من شجاعة ، وزاد عليها ؛ قال :

قــد علمت خيبر أني كعــب ... مفرّج الغـمّى جــريء صلب
إذ شبت الحرب تلتها الحرب ... معي حسام كالعـَقيق عَضْب
نطأكم حتى يذل الصعب ... نعطي الجزاء أو يفيء النَّهْب
بكف ماض ليس فيه عَتْب

* * *

الرّثــــاء :

إن المسلك الذي اتبعه كعب في رثائه هو نقل ما كان يقوله في المديح ، من عالم الأحياء إلى عالم الأموات ، فهو يعدد خصال المرثي، ويسجل مناقبه ، ولكنه أخضع رثاءه كما أخضع فنونه الأخرى إلى المقاييس الاسلامية ، فقد تحدث بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية ، فيها المجد والتقوى والإسلام ، وفيها الخير والبر والوفاء ، وبهذه المآثر والمناقب الجديدة مثلاً ، كانت فاجعة الإسلام والمسلمين عند فقد رسول الله عليه السلام ، ولفقد هذه المآثر والمناقب كان يلحّ كعب على عينيه أن تبكيا رسول الله ﷺ بدمع منهمر :

يــا عينُ فابكي بدمع ذَرِيَ
لخــير البريــة والمصطفى
وبكّي الرســول وحق البكــاء
عليــه لــدى الحرب عنــد اللقــا
على خــير مــن حملت نــاقــة
واتقى البريــة عنــد التقــى
على سيــد مــاجــد جحفــل
وخــير الأنــام وخير اللهـــا

وتعديد الخصال وتسجيل المناقب ، هو السبيل الذي سلكه كعب في أغلب رثائه ، سواء لرسول الله ﷺ أم لسواه ، فعندما بكى حمزة رضي الله عنه ، أتى على ذكر شمائله الكريمة، وخصاله الحميدة فعرضها أجمل عرض ، فهو سيد شريف ، كريم الحسب ، باذل للأموال ، بطل في ساحات القتال :

قَرْم تمكن في ذؤابة هاشم
حيث النبوة والندى والسؤدد
والعاقرُ الكَومَ الجلاد إذا غدت
ريح يكاد الماء فيها يجمد
والتارك القِرْن الكَمِيّ مجدّلاً
يوم الكريهة والقنا يتقصد

وفعل نفس الشيء حين رثى الإمام عثمان رضي الله عنه ، فعدد مآثره ، وبيّن مفاخره ، فهو صهر الرسول عليه السلام ، وصديقه، عرف العرب أصله ، وخبروا حكمه وسلطانه ، لايرد سائلاً ولا يغدر بجار ، بطل في كل نزال أو طعان .

وطالب عينيه أن تجودا بالدمع ، ولا تبخلا عليه بذلك ، حينما رثى عبيدة بن الحارث، وهو أحد المسلمين الذين أصيبوا يوم بدر، وسلك مسلكه السابق في تعديد مآثره ، وذكر مناقبه فهو كريم الحسب ، كثير المشاهد ، طيب الذكر . قال :

أيا عين جودي ولا تبخلي
بدمعك حقاً ولا تَنْزِري
على سيد هدّنا هلكُه
كريم المشاهد والعنصر

جريء المقدّم شاكي السلاح
كريم النشا طيب المكسر(١)

* * *

وإضافة إلى تعديد خصال الميت ، وتسجيل مناقبه ، كان يظهر اثر فقد المرثي في الناس والمجتمع ، فعندما فقد الرسول عليه السلام ، لم يكتف كعب بنعيه إلى أصحابه ، أو إلى العرب والمسلمين فقط ، بل تعدّاهم إلى جميع العالمين ، حتى أشرك الجن في هذا النعي . وفقد الرسول ليس بالهيّن ، فذلك يعني انقطاع الوحي الذي كان يهبط عليه في حياته ، وما دام محمد عليه السلام قد انتقل إلى الرفيق الأعلى فلا أمل بعد اليوم في هذا النور الذي كان يعم الكون ، ويشمل العالمين :

ألا انعي النبي إلى العالمينا
جميعاً ولا سيما المسلمينا
ألا انعي النبي إلى أصحابه
واصحاب أصحابه التابعينا
ألا انعي النبي إلى من هدى
من الجن ليلة إذ تسمعونا
لفقد النبي إمام الهدى
وفقد الملائكة المنزلينا

* * *

(١) النشا : ما يتحدث به عن الرجل من حسن .

وكثيراً ما كان يشرك العوالم الطبيعية رزء المصاب ، فتحس وتتألم ، فحين استشهد جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه في مؤتة ، أظلم القمر ، وكسفت الشمس ، وكادت أن تأفل . قال :

فتغير القمر المنير لفقده
والشمس قد كسفت وكادت تأفل

وحين قتل الخليفة عثمان ، انهدت الجبال لمصرعه ، وحزنت النجوم لمقتله ، أما الشمس فلم تبزغ ـ كعادتها كل يوم ـ بل كانت مكسوفة قال :

ويح لأمر قد أتاني رائع
هدّ الجبال فأنقضت برجوف
قَتل الخليفة كان أمراً مفظعا
قامت لذاك بلية التخويف
قتل الإمام له النجوم فواجع
والشمس بازغة له بكسوف

* * *

أما الذين رثاهم في شعره ، فكان على رأسهم الرسول عليه السلام ، وقد وصل إلينا منه ثلاث مقطعات لم يزد مجموع أبياتها على سبعة عشر بيتاً ، وفي أغلب الظن أن تكون هذه المقطعات من قصائد لم يصل إلينا منها سوى هذه الأبيات .

ورثى عثمان بأربعة وسبعين بيتاً ، وحمزة بن عبد المطلب بسبعة وخمسين بيتاً ، وقتلى مؤتة بتسعة عشر بيتاً ، وعبيدة بن الحارث بخمسة أبيات . وقد ترددت أسماء بعض الصحابة في ثنايا قصائده رثاهم ببيت أو بيتين .

وكان استشهاد حمزة صدمة عنيفة بالنسبة لكعب فقد رثاه بقصائد تفيض بالشعور الصادق والعواطف المتأججة ، وعبر فيها عن نفس مكلومة ، هدّها الهم ، وضعضعها الحَزَن .

ولقد هُددتُ لفقد حمزة هدة
ظلت بنات الجوف منها ترعد
ولو انه فجعت حِرَاء بمثله
لرأيت راسي صخرها يتبدد

وربما كان مبعث هذا كله مركز حمزة لدى المسلمين وحزن الرسول البالغ عليه ، وتأثره العميق لاستشهاده ، فقد روى ابن هشام : ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا . فصور أثر فقده على المسلمين ، ومصاب الرسول فيه قال :

أصيب المسلمون به جميعاً
هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الاركان هُدّت
وأنت الماجد البرّ الوصول
عليك سلام ربك في جنانٍ
مخالطها نعيم لايزول
الا يا هاشم الأخيار صبراً
فكل فعالكم حسن جميل
رسول الله مصطبر كريم
بأمر الله ينطق إذ يقول
الا من مبلغ عني لؤياً
فبعد اليوم دائلة تدول

وقد يكون لرغبة الرسول عليه السلام في بكاء حمزة أثر في رثاء كعب له ، وتجويده في ذلك ؛ فقد رُوي أن الرسول عليه السلام حين سمع بكاء الأنصار على قتلاهم ذرفت عيناه ، ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له . ولذا فقد طالب كعب صفية أن تبكي النساء عليه ، ولا تسأم أن تطيل عليه البكاء :

صفية قومي ولا تعجزي
وبكّي النساء على حمزة
ولا تسأمي أن تطيلي البكا
على أسد الله في الهِزّة

ورثى عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي قطعت رجله في مبارزته هو وحمزة وعلي للمشركين في بدر ، ثم هلك من مصابه في رجله . ويوم مؤتة رثى من استشهد من المسلمين بقصيدة أودعها حزنه وصب لوعته ووجده في قوالب متينة الاسلوب جزلة الألفاظ .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب ثلاث قصائد طوال من رثاء كعب للخليفة عثمان ، صور فيها مأساة يوم الدار أروع تصوير ، فجاءت تفيض باللوعة والأسى ، وقد أنحى فيها باللائمة على الأنصار ، وأنّبهم لخذلانهم خليفة رسول الله ، وقف على مجلس الأنصار في مسجد رسول الله فأنشدهم :

من مبلغِ الأنصار عني آية
رسلاً تقص عليهم التبيانا
رسلاً تخبركم بما أوليتم
إن البلاء يكشف الإنسانا

ان قـد فعلتم فعلة مذكـورة
كَستَ الفضوح وابدت الشنآنـا
بقعودكـم فـي داركـم واميركـم
تخشى ضواحـي داره النيرانـا

ثم يأتي على ما دار في ذلك اليوم في الدار إلى أن يقول :

يا لهف نفسي إذ يقـول الا أرى
نفـراً من الأنصار لي أعوانـا

وله في ذلك مقطوعتان ايضاً ، قال عن إحداهما الشعبي ـ حسبما أخرج الحاكم ـ : ما سمعت من مراثي عثمان أحسن من قول كعب ابن مالك حيث قال :

فكفّ يديـه ثم أغلـق بابـه
وأيقـن أن الله ليس بغـافـل
وقـال لأهـل الـدار لا تقتلوهم
عفا الله عـن كل امرىء لـم يقاتل
فكيف رايـت الله صب عليهـم الـ
عداوة والبغضـاء بعـد التواصل
وكيف رايت الخير أدبـر بعـده
عن الناس إدبار الريـاح الحوافل

وسلك كعب في جميع مرثياته لعثمان سبيل تعديد مناقبه ، والإشادة بخصاله الحميدة ، وبيان فضله ، إضافة إلى ما ذكرنا من توبيخ الأنصار .

* * *

والملاحظ على رثاء كعب أنه كثيراً ما كان يستغله لصالح فكرته ، فيجعل منه صورة من صور الدعاية للدين ، وبث الافكار الإسلامية ، فهو يمزج رثاءه بثواب الآخرة ، والتنعم بجنان الخلد ، وقيمة الاستشهاد في سبيل الله ، وفي رثائه لقتلى المسلمين في أحد تبرز هذه المعاني واضحة جلية :

ويأتي هذا المعنى في رثائه لحمزة رضي الله عنه أيضاً :

عليك سلام ربك في جنان مخالطها نعيم لا يزول

* * *

وأغلب ما وصل إلينا من رثاء كعب يستعين فيه بالبكاء ، ويطلب من عينيه أن تنجداه بالدمع ، فحين رثى الرسول عليه السلام استهل قصيدته بذلك فقال :

أيا عين فابكي بدمع ذُرَى
لخير البرية والمصطفى
وبكّي الرسول وحق البكا
عليه لدى الحرب عند اللقا

واستهل مرثيته الأخرى للرسول ﷺ بالبكاء أيضاً . فقال :

وباكية حرّاء تحزن بالبكا
وتلطم خدّيها معاً والمقلّدا
على هالك بعد النبي محمد
ولو علمت لم تبك إلا محمداً

وفي رثائه لحمزة كان استهلاله لمرثياته الثلاث بالدمع والبكاء أيضاً .

وكذلك في رثائه لقتلى مؤتة ، ولعثمان ، ولعبيدة بن الحارث .

* * *

وهكذا كان كعب رضي الله عنه رقيـق الاحساس ، جياش العاطفة ، تهزه المأساة ، وتثيره الفاجعة ، فيسيل دمعه غزيراً ، وتذوب نفسه حسرات ، ويتفجر شعره ألماً وحزناً ولوعة وأسى .

* * *

(٢)

خصائص شعره الفنيّة

أسرة عريقة في الشعر :

إن الحديث عن الجانب الفني من شعر كعب يدعونا إلى القول بأننا لانستطيع إعطاء صورة واضحة صادقة تنصف الشاعر ، أو تضعه في المكان الذي يستحقه ؛ لأن ما استطعنا جمعه من شعره قليل إذا ما قيس بسنيّ حياته ، ولا يمكن أن يعطي صورة كاملة لشاعريته ، وجل ما يقال عنه أنه يمثل صوراً منتزعة من بعض شعره ، فإن الكثير من شعره عدت عليه حوادث الدهر ، وامتدت إليه يد الضياع والنسيان ، وليس ثَمَّة تعليل لضياع شعره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه ضاع كما ضاع شعر كثير من شعراء الجاهلية والاسلام . فمن غير المعقول أن يكون ما بين أيدينا هو كل ما قاله من شعر ، مع أنه واحد من ثلاثة شعراء ، اعتمد عليهم الاسلام في مراحله الأولى التي نازل فيها الشرك ، هذا بالإضافة إلى الأخبار التي تشير إلى أن كعباً عرف بالشعر في جاهليته ، فقد ذكر الصفدي في نكت الهميان ومن بعده البغدادي : « أنه غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر وعرف به » .

ولدينا رواية تؤيد ما ذهب إليه هذان المؤرخان الأديبان ، فقد ذكر كعب نفسه حين قدومه إلى الكعبة ، قبيل العقبة الثانية ،

صحبة أحد الأنصار ما نصه : « فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ، ورسول الله ﷺ جالس معه ، فسلَّمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور ، سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : ألشاعر ؟ قال : نعم . فلو لم يُعرف كعب في جاهليته بالشعر لما أطلق عليه الرسول ﷺ لفظة شاعر . ويمكن أن تدل هذه الحادثة على شيء آخر جدير بالالتفات ، وهو أن كعباً لا بد أنه كان من الشهرة وذيوع الصيت ؛ بحيث أتيح للرسول عليه السلام أن يعرف عنه ذلك ، وهو لمّا يزل في مكة ، وكعب في المدينة .

ولكعب بن مالك أصل عريق في الشعر ، وفرع طويل امتد إلى أحفاده ، فأبوه مالك بن أبي كعب بن القَيْن شاعر ، وله في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهم قبل الاسلام آثار وذكر . وحفظت له كتب الأدب كثيراً من الشعر . وعمه قيس بن أبي كعب شاعر ، وابنه عبد الرحمن شاعر ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، وله في كتب الأدب أبيات ، وابن ابنه عمرو بن عبد الله ، والزبير بن خارجة بن عبد الله بن كعب شاعر ، وكذلك عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب ، ومعن بن عمرو بن عبد الله بن كعب ، والضحاك ابن معن ، ومعن بن وهب بن معبد بن كعب شاعر . وكلهم مجيد مقدّم .

الألفاظ والتراكيب :

نشأ كعب في يثرب ، وعاش بين أحضانها ، وهي أشعر القرى العربية كما ذكر ابن سلاّم ، وترعرع في أسرة لها شأن في الشعر

كما رأينا ، فلا غَرْوَ أن يشب فصيح اللسان ، واضح البيان ، وأن تكون ألفاظه خالية من الغرابة والشذوذ ، وتنافر الحروف فلغته سهلة لينة ، لأنه لم يتوغل في الصحراء ، ولم يترعرع بين الأعراب .

ولما عمّت أضواء الاسلام مدينة يثرب وكان كعب من السباقين إلى الانضواء تحت لوائه ، بدات عباراته تزدان بألفاظ القرآن ، وتتشح بكلمات الحديث ، فازدادت في سهولتها ورقّت في عذوبتها ، ونحن إذا تتبعنا شعر كعب نجده زاخراً بألفاظٍ ومصطلحات العصر الاسلامي سواء منها ما ابتدعته هذه الحياة ، أو ما وجدته مستعملاً فحمّلته معنى جديداً ذا صبغة إسلامية . وقصيدته الرائية التي ردّ بها على ضرار نموذج من شعره الذي يفيض بهذه الألفاظ والمصطلحات ، كما وردت هذه الألفاظ والمصطلحات في مواضع أخرى من شعره ، ومن ذلك قوله الذي جاء فيه لفظ رسول الله عليه السلام ، وهو اصطلاح إسلامي :

وفينا رسول الله والأوس حوله
له معقل منهم عزيز وناصر

وورد هذا الاصطلاح في مواضع عديدة من شعره .

ولفظ فاجر في قوله :

بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
وكان يلاقي الحَين من هو فاجر

وورد أيضاً في مواضع كثيرة من شعره .

ولفظ كفور وجهنم ورد في قوله :

فأمسَوا وقود النار في مستقرها
وكـل كفـور في جهنـم صائـر

وتكرر في مواضع عديدة من شعره أيضاً .

ولفظ مجاهد في قوله :

فلمـا لقيناهـم وكـل مجاهـد
لأصحابه مستبسل النفس صابـر

وغير هذه القصيدة من شعره مليء أيضاً بمثل هذه الألفاظ .

ولو رحنا نستقصي ألفاظ شعره لما وجدنا قصيدة أو مقطوعة تخلو من هذه الألفاظ والمصطلحات ، وهو بهذا يمكن أن يعد معجماً لتلك الألفاظ والمصطلحات .

* * *

أما تراكيبه فهي طبيعية ، لا تعقيد فيها ولا التواء ، فكعب شاعر مطبوع ، لم يُعرف عنه أنه قوّم شعره بالثقاف ، أو نقّحه بإعادة النظر فيه ، فهو يجري في شعره على سجيته ، كذلك لا نراه يقدم ما حقه التأخير ، ولا يؤخر ما حقه التقديم ؛ إلا ما دعت إليه أصول البلاغة كما في قوله :

عبيدة أمسى ولا نرتجيـه   لعرف عرانـا ولا منكـر

أو قوله :

وهام بني ربيعة سائلوها   ففي أسيافنا منها فلـول

فتقديم عبيدة وهام ، أفادا الاهتمام بهما .

* * *

أما بناء القصيدة عنده فإن جميع ما بين أيدينا من شعره خال من المقدّمات الطللية أو الغزلية ، حاشا قصيدة واحدة ، استهلها ببيتين من الغزل التقليدي ، مع أنها رثاء :

طرقت همومك فالرقاد مسهد
وجزعت ان سلخ الشباب الأغيد
ودعت فؤادك للهوى ضمرية
فهواك غوري وصحوك منجد

وربما يرجع ذلك إلى ضياع مطالع قصائده ، أو إلى عوامل السرعة والارتجال ، لملاحقة الأحداث ، ولأن أغلب شعره شعر مقطوعات ، وهذا النوع من الشعر لا يحتاج إلى مقدمات ، فالشاعر فيه مضطر لأن يدخل موضوعه مباشرة . وقد يكون متعمداً ذلك لينزه شعره من معالم الوثنية التي يمكن أن يرمز إليها ذكر الأطلال .

ويلاحظ على مطالع قصائده ، استفتاحها بلفظة (ألا) في أكثر من قصيدة ، إذ وردت هذه اللفظة مع (هل) في موضعين ووردت مع (أبلغ) في موضعين أيضاً .

واسلوب الابتداء ب (الا) معروف في الشعر الجاهلي ، فقد ابتدأ بذلك بشير بن أبي خازم في أكثر من قصيدة وعبد الشارق وعازف الطائي وسعية بن العريض وغيرهم .

ومما يلاحظ على مطالع قصائده أيضاً أنه كثيراً ما يطلب فيها إبلاغ ما يريد بواسطة الفعل (أبلغ) أو (من مبلغ) فتارة يقول :

ابلغ ابيّاً انه قال رايه
وحان غداة الشّعب والحَين واقع

واخرى يقول :

أبلغ قريشاً وخير القول أصدقـه
والصدق عند ذوي الألباب مقبول

ويبدأ بكلمة تشبه هذا فيقول :

من مبلغ الأنصار عني آية رسلاً تقص عليهم التبيانا

وعلة هذه الظاهرة أنه كان في المدينة ، والخطـاب في أكثره موجه إلى أهل مكة ، وربما كان ذلك لطبيعة الجـدل والحجاج ، التي كانت مسيطرة على شعراء هذه الفترة .

ومن الظواهر التي تلاحظ على شعره أيضاً ، المقطوعات التي قد تهبط أحيانا إلى البيت الواحد ، وربما يكون مرد ذلك إلى أن كثيراً من شعره قد ضاع . ويرجح ذلك بالنسبة لأبيات الاستشهاد خاصة ، فلا يمكن أن يكون قد نظمها منفردة ، كما وردت في مواطن الاستشهاد ، فهي تبدو غير مستقلة بمعناها ، كالبيت الذي اورده ابن عبد البر شاهداً على قبيلة غسان :

وغسان أصلي وهم معقلي فنعم الأرومـة والمعقـل

فهذا البيت لا بد أن يكون قد اقتطع من قطعة أكبر ، ومثل ذلك بالنسبة إلى بيته في الصّحاح الـذي استشهد به في مـادة (ذرب) :

بمذرّبات بالأكـف نواهل وبكل أبيض كالغدير مهنّد

وقد يكون للسرعة التي كانت توجهها عليه ملاحقة الاحداث ، وعدم توافر الوقت الكافي لديه لتنظيم القصائد المطوّلة ؛ أثر في شيوع المقطوعات أيضاً .

والقصيدة عنده محكمة النسج ، وقد يتخللها ضرب من الروح القصصية ، ومع أن هذه الروح لم تتسع عنده ، ولم تشمل نطاقاً واسعاً من شعره ، فإننا يمكن أن نلمسها في البعض منه ، فقد اتسمت قصيدته التي روى بها مقتل ابن الأشرف،وإجلاء بني النضير ــ مثلاً ــ بهذه الروح القصصية ، إذ روى فيها بصورة متسلسلة مقتل هذا اليهودي ، ثم إجلاء اليهود بعد مصرعه .

الخيال والصورة :

يشكل الخيال جانباً مهماً من شعر كعب ، ويعدّ التصوير وسيلة أساسية من وسائل التعبير عنده ، ففيه عدد لا يحصى من الاستعارات ، والتشبيهات ، والكنايات ، وهو في ذلك يستمد صوره البيانية من عالم الحس والمادة ، شأنه في ذلك شأن الشعراء الجاهليين ، فهو مثلاً يشبّه طعنات الرماح بفم السقاء الذي يتدفق ماؤه ويسيل ، ليبين سعتها فيقول :

تكر القنا فيكم كأن فروعها
عزالَى مَزاد ماؤها يتهزع

ويشبه الحرب بالناقة ، كلما شدّ على ضرعها درت أكثر ، ليوضح شدة الحرب فيقول :

ألسنا نشدُّ عليها العصا
ب حتى تدر وحتى تلينا

والملاحظ على هذه الصور المادية أنها مستمدة من بيئته الطبيعية والاجتماعية ، كغيره من شعراء الجاهلية أو معاصريه ، فقد استمد مثلاً من الإبل كثيراً من صوره البيانية ، ونحن نعرف أن الإبل كانت

عماد الحياة العربية في هذا العصر . ومن ذلك تشبيهه المسلمين بفحول الإبل :

يمشون تحت عمايات القتال كما
تمشي المصاعبة الأدم المراسيل

وأعطى الحرب صفة الناقة فقال :

إنا بنو الحرب نمريها وننتجها
وعندنا لذوي الأضغان تنكيل

وسمّى حمزة رضي الله عنه (قَرْما) فقال :

قرم تمكن في ذؤابة هاشم
حيث النبوة والندى والسؤدد

وشبه قاتل حمزة بالجعل الأسود فقال :

فلاقاه عبد بني نوفل يبربر كالجَعَل الأدعج

واستمد كثيراً من صوره من حيوان الصحراء المحيطة ببيئته ، كالأسد والنمر والذئب والكلب والنّعام . ومن الظواهر الطبيعية المألوفة في يثرب حَرّاتها التي تحيط بها ، وقد استمد شاعرنا صوراً عديدة من هذه الحَرّات ، فشبه مواضع الإبل بالفتين(١) في قوله :

معاطن تهوي إليها الحقو ق يحسبها من رآها الفتينا

---

(١) الفتين : الحرار وهي الأراضي فيها حجارة سود .

وشبه هذه المواضع باللوب مرة أخرى ، وهي الحَرّات أيضاً قال :

بيضاء ، مشرفة الذرا ومعاطناً
حمّ الجذوع غزيرة الأحلاب
كاللوب يبذل جمها وحفيلها
للجار وابن العم والمنتاب

ومن الغدران المنتشرة في أرجاء المدينة استمد صوراً أخرى ، فشبّه بها الدروع في قوله :

وكل صموت في الصوان كأنها
إذا لبست نُهَىً من الماء مترع

والصور التي أخذها عن النجوم والقمر والنور كثيرة أيضاً ، لما لهذه الأشياء في حياة العرب من أهمية ، ولما تحس به بيئته من رهبة الظلام في الليل ؛ ومن ذلك تشبيهه نقباء العقبة بالنجوم في قوله :

أولاك نجوم لا يغبّك منهم
عليك بنحس في دجى الليل طالع

واستعار النور للهداية في قوله :

وردناه بنور الله يجلو دجى الظلماء عنا والغطاء

واستعار لهداية الإسلام كلمة النور أيضاً في قوله :

وأشياع أحمد إذ شايعوا على الحق ذي النور والمنهج

وشبه الرسول عليه السلام بالبدر في قوله :

نمضي ويذمرنا عن غير معصية كأنه البدر لم يُطبع على الكذب

وأخذ عن الشهاب صوراً عديدة أيضاً ، والنار مشهورة عند العرب ، توقد في كل حي ، وتضرم لكل ضيف ، ومن ذلك تشبيهه جماعة المسلمين بالشهاب ، لما لهم من ضرٍّ في الأعداء :

وكنا شهاباً يتقي الناس حرّه　　ويفرج عنه من يليه ويسفع

وشبه الحربة بالشهاب أيضاً ، لما لها من لمعان فقال :

فأوجره حربة كالشهاب　　تَلَهَّبُ في اللهب الموهج

وشبه الألم بالشهاب لما له من تأثير يشبه الحرق قال :

وكأن ما بين الجوانح والحَشَا
مما تأوبني شهاب مدخل

* * *

وللألوان أهميتها في خيال كعب ، فهي ظاهرة فنية حرص عليها في شعره ، فصبّغ موصوفاته بالألوان المختلفة ، وخاصة الأسحلة . ومن بين هذه الألوان لون طغى على خياله ، وهام به أكثر من غيره ، فصبغ به غير واحد من موصوفاته ، وهو البياض ، لوّن به سيوف المسلمين في عدة مواضع ، ولكنه ضنّ بهذا اللون على غيرها من السيوف ، فلم يمنحه إلا للسيوف التي حملها المسلمون ، ودافعوا بها عن الإسلام ، ومن ذلك قوله يوم بدر :

وقد عريت بيض خفاف كأنها
مقابيس يزهيها لعينيك شاهر

وبلغ من حبه لهذا اللون أن نعت به رسول الله ﷺ في قوله :

ومواعظ من ربنا نهدى بها　　بلسان أزهرَ طيّب الأثواب

والآطام التي يسكنها المسلمون بيضاء :

بيضاء مشرفة الذرا ومعاطناً حمّ الجذوع غزيرة الأحلاب

ودروع المسلمين بيضاء أيضاً :

بيضاء محكمة كأن قتيرها حدق الجنادب ذات شكّ موثق

وكذلك وجوههم :

بيض الوجوه ترى بطون أكفهم
تندَى إذا اعتذر الزمان الممحل

أما الألوان الأخرى ، فقد استمد منها أصباغه الأخرى أيضاً ، فالكتيبة جأواء (١) في قوله :

ودفّاع رجل كموج الفرا ت يقدم جأواء جولا طحونا

والسنان أزرق :

وأغر أزرق في القناة كأنه في طخية الظلماء ضوء شهاب

وأخو الحرب أصدى :

فلا تَمَنّوا لقاح الحرب واقتعدوا
إن أخا الحرب أصدى اللون مشمول(٢)

* * *

(١) جأواء : كتيبة لونها السواد إلى الحمرة .

(٢) الأصدى : لونه بين السواد والحمرة .

أما الجناس والطباق فمن الحق أنهما قليلان في شعره ، ولكنهما على كل حال مبثوثان فيه ، ومن أمثلة طباقه قوله :

فجئنا إلى موج مـن البحر وسطه
أحـابيش منهم حـاسر ومقنـع

طابَقَ فيه بين حاسر ومقنع .

ومن رائع طباقه قوله :

ودعت فؤادك للهوى ضمرية   فهواك غوري وصحوك منجد

والطباق واضح في هذا البيت بين غوري ومنجد .

ومن أمثلة جناسه قوله :

تخـال جدّية الأبطال فيهـا   غداة الزحف جادياً مدوفا

فقد جانس بين جدية وجادياً (١) .

ومن الأبيات التي جانس فيها أيضاً قوله :

حوش الوحوش مطارة عند الوغى
عبس اللقـاء مبينة الانجـاب

إذ جانس بين حوش والوحوش .

وكعب في هذه الألوان البديعية وأمثالها إنما يصدر عن ذوق عصره ، فهو يستخدمها من غير تكلف أو تعمد ؛ أو بعبـارة أدق : تجري في شعره طبيعية ، لاتكلف فيها ولا تعمد .

---

(١) الجدية : الطريقة من الدم ، والجادي : الزعفران .

المعاني والأفكار :

أما معاني شعره فهي فطرية ، مستمدة من بيئته ، مع امتيازها بالصراحة ، واتسامها بالصدق ؛ فلا كذب فيها ولا مبالغة ، ومع ذلك فإننا نلمس فيها جِدّة ، استدعتها حياته الإسلامية ، فاتشحت بمعاني هذه الحياة ، وانطبعت بروحها الديني . ويمكن أن نلمس تلك المعاني والمفاهيم الجديدة في كل قصيدة أو مقطوعة مما نظمه ، ولنأخذ مثلا رائيته ، التي ردّ بها على ضرار والتي مطلعها :

عجبتُ لأمر الله والله قادر على ما أراد ليس لله قاهر

فإننا نجد أن هذا المعنى متأثر إلى حد كبير بالمعاني الإسلامية التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال » .

والبيت الأخير من القصيدة وهو :

لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمّه الله زاجر

متأثر بنفس الآية الكريمة أو بقوله تعالى : « ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

أما قوله :

فأمسَوا وقودَ النار في مستقرها
وكل كفور في جهنم صائر

فمتأثر بقوله تعالى : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير » .

وثمة أبيات كثيرة متأثر فيها بآيات القرآن الكريم .

وكعب إذا أعجب بطرافة معنى من المعاني كرره أكثر من مرة ، ومن ذلك قوله :

عجبت لأمر الله والله قادر	على ما أراد ليس لله قاهر

كرر معنى الشطر الثاني في القصيدة نفسها قال :

لأمر أراد الله أن يهلكوا بـه	وليس لأمر حَمّه الله زاجر

وتكرر هذا المعنى في موضع ثالث من شعره ، فقال :

فلمـا تلاقينـا ودارت بنـا الرحى
وليس لأمـر حمّـه الله مدفـع

ومن ذلك أيضاً قوله :

ونحن أنـاس لانرى القتـل سبّة
على كل من يحمي الذمـار ويمنع

تكرر هذا المعنى في موضع آخر من شعره حيث قال :

وإنـا أنـاس لانرى القتـل سبّة
ولا ننثني عنـد الرمـاح المداعس

وقد ثبت أن الرسول ﷺ كان يثقّف له بعض شعره ، ويرشده إلى المعاني الاسلامية ؛ وكان كعب يفتخر بهذا ويقول : ما أعان رسول الله ﷺ أحداً في شعره غيري .

ويروى أن النبي عليه السلام خرج على كعب وهو في مسجد الرسول فلما رآه كأنه انقبض فقال : ما كنتم فيه ؟ فقال كعب : كنت أنشد :

مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة

فقال رسول الله ﷺ : لاتقل عن جذمنا ، ولكن قل : مقاتلنا عن

ديننا . وطبيعي أن لايرضى رسول الله ﷺ لكعب أن يجعل فخره بالنسب ، لأن ذلك من رواسب الجاهلية التي نهى عنها الإسلام ، ولأن الإسلام إنما شرع القتال للدفاع عن الفكرة والعقيدة ، لا الأصل والنسب .

ولكعب صلة وثقى بالشعر الجاهلي ، فقد ذكر في شعره تعبيرات ومعاني ترددت في شعر الشعراء الجاهليين ، ومن ذلك قوله:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
قدماً ونلحقها إذا لم تلحق

توارد عليه جماعة من الشعراء الذين سبقوه في قصائدهم (١) فقال ودّاك بن ثميل :

مقاديم وصّالون في الروع خطوهم
بكل رقيق الشفرتين يمان

وقال قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها
خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وقال الأخنس بن شهاب التغلبي :

وإن قصرت أسيافنا كان وصلها
خطانا إلى القوم الذين نضارب

وقول كعب :

وإنا أناس لانرى القتل سبّة
ولا ننثني عند الرماح المداعس

(١) ذكر البغدادي في الخزانة ستة شعراء تداولوا هذا المعنى في الجاهلية .

ورد معنى الشطر الأول منه في الشعر المنسوب للسموءل حيث قال :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبّة إذا ما رأته عامر وسلول

أما قوله :

صبرنا لهم والصبر منا سجية
إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق

فقد ورد معنى الشطر الأول في قول الحصين بن الحمام قال :

صبرنا وكان الصبر منا سجية
بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما

وقوله :

فلست لحاصن إن لم تروها بساحة داركم منا ألوفا

ورد ما يشبه معنى الشطر الأول منه في شعر قيس بن الخطيم حيث قال :

فلست لحاصن إن لم ترونا نجالدكم كأنا شَرْب خمر

* * *

الأوزان والقوافي :

لو نظرنا إلى الأوزان التي صاغ بها كعب شعره لوجدناها نفس الأوزان التي كان ينظم فيها سواه من الشعراء الجاهليين مع بروز بعضها بصورة ملحوظة ، كالبحر الطويل ، الذي نظم فيه تسعاً وعشرين مرة ، والوافر الذي نظم فيه عشر مرات ، والكامل الذي نظم فيه تسع مرات ، ويأتي بعد ذلك البسيط حيث نظم فيه تسع مرات ، فالمتقارب الذي نظم فيم ثماني مرات ، ونظم في الرّجَز ثلاث

مرات ، وفي كل من الخفيف والمنسرح مرة واحدة ، وأهمل النظم في البحور الأخرى فيما وصل إلينا من شعره .

وهو في هذا سار على الطريق الذي سلكه من سبقه من الشعراء الممتازين في الجاهلية ، والذين كانوا يكثرون من النظم في الطويل والبسيط والكامل ؛ مؤثراً البحور الكثيرة المقاطع ، وذلك لأن مجال المفاخرة والمناظرة يتطلب طول النفس في الإنشاد .

وهناك ظاهرة عروضية شاعت في كثير من أوزان شعره ، وهي انتشار الزحافات الشائعة في معظم الشعر الجاهلي ، بل في الشعر الإسلامي أيضاً . ومن ذلك ماجاء في رثائه لعثمان بن عفان رضي الله عنـــه :

لقد عجبت لقوم أسلموا بعد عزهم
إمـــامَهم للمنكرات وللغـــدر

فزاد لقد ، وهو ما يسمى بالخزم (١) .

أمـــا قوافيه فأكثرها رشيقة جميلة . وقد جرى في كثير من قصائده على سنّة المجيدين من الشعراء من حيث التصريع ، فإن الفحول من الشعراء المجيدين ، مـــن الشعراء القدماء والمحدَثين ، يتوخّون ذلك ، ولا يكادون يعدلون عنه . وقـــد تكرر التصريع في شعره ست عشرة مرة ، ثمـــاني مرات في قصائده وثماني أخرى في مقطوعـــات .

---

(١) الخزم : أن يأتي الشاعر بالحرف زائداً في أول الوزن ، إذا سقط لم يفسد المعنى ولا أخلّ به ، ولا بالوزن . وربما جـــاء بالحرفين والثلاثة ، ولم يأتوا بأكثر من أربعة أحرف . وهـــو ليس عند الأقدمين بعيب .

والروي في قصائده موزع على أربعة عشر حرفاً . وقع الراء روياً في اثنتي عشرة منها ، والنون في تسع ، واللام في ثمان ، والباء في ست ، وكان من الدال والعين والميم في خمس ، وكل من الهمزة والفاء والقاف في أربع ، والكاف والياء في اثنتين ، والثاء والجيم والزاء والسين كل منها في قصيدة واحدة . ونسبة شيوع هذه الحروف في روي قصائد كعب طبيعية ومقاربة لما شاع في الشعر العربي (١) .

* * *

منزلته الشعرية :

لكعب منزلة شعرية رفيعة أهلته لأن يقول له رسول الله ﷺ : « إنك لحسن الشعر » ، وأن يكون من فحول شعراء القرى العربية. ذكر ابن سلاّم عنه حين تكلم عن القرى العربية : وأشعرهن قرية المدينة ، شعراؤها الفحول خمسة ، ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس : من الخزرج من بني النجار حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة كعب بن مالك ، ومن بلحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة ... وعرف ابن سلاّم قيمة شعره الفنية فقال : وكعب بن مالك شاعر مجيد . أما ابن عبد البر فقد ذكرأن له أشعاراً حساناً جداً فيالمغازي وغيرها . وأنصفه الصفدي ، وكذلك البغدادي ، فجاء قولهما عنه واحداً ؛ قالا : هو أحد شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردون الأذى عنه ، وكان مجوداً مطبوعاً .

وقد استحسنت السيدة عائشة رضي الله عنها شعره وروته ،

---

(١) انظر إحصائية رَويّ الشعر العربي في كتاب موسيقى الشعر ص ٢٤٦ .

فقالت : الشعر منه حسن ومنه قبيح ، خذ الحسن ودع القبيح ، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً ، منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك .

* * *

ومن هذا يتضح أن الذين ترجموا له ، أو ذكروا شيئاً عن فنه لم يختلفوا في أنه شاعر مجوِّد مطبوع؛ وهذا الحكم ينطبق عليه تماماً ، لأنه مجوِّد في أغلب شعره ، مع الاعتراف بأن شعره متفاوت ، وهذا قد يكون من طبيعةالموضوع نفسه ، فقد تجده مجوِّداً كل التجويدفي فن من الفنون أو قصيدة من القصائد ، كما نرى في فائيته التي نظمها بعد الفراغ من حنين والتي مطلعها :

قضينا من تهامة كل ريب
وخيبر ثم أجممنا السيوفا

أو في لاميته التي بكى فيها أصحاب مؤتة والتي مطلعها :

نام العيون ودمع عينك يهمل
سحّاً كما وكف الطباب المخضل

فقد جود فيهما كل التجويد ، وله غرر أخرى لاتقل عنهما ، سما فيها خياله ، ولطف أسلوبه ، وجادت لغته إلىحد بعيد ، ولكن هذا لايمنع من أن نقول : إن له شعراً لايعدو أن يكون نظماً بعيداً عن الأصالة ، كما نرى في العينية التي أرخ فيها لبيعة العقبة ، فجاءت مشحونة بالأعلام ، خِلواً من الأصالة التي نجدها في شعره ، قال :

أبلغ أبيّاً أنه قال رأيه
وحان غداة الشعب والحين واقع

إلى أن يقول :

ودونــك فاعلم أن نقض عهــودنــا
أبــاه عليك الرهط حــين تبايعــوا

أبــاه البــراء وابن عمرو كلاهمــا
وأسعد يأبـــاه عليــك ورافـــع

ويستمر في هذا المنهج الذي نحس فيه ليناً ظاهراً ، ونثرية بينــة .

* * *

ولكعب موهبة مكنته أن ينظم المقطعات والقصائد والأرجاز ، والشاعر إذا قطّع وقصّد ورجز فهو الكامل . ورجزه لايختلف عن شعره من حيث خصائصه الفنية ، سواء في اللفظ أو المعنى ، وقد حفظت المصادر ثلاثاً من أراجيزه القصيرة ؛ فقــد رد على مرحب اليهودي في خيبر بثلاثة أبيات ، وعلى سلمة بن الأكــوع ببيتين ، ووصل إلينا بيت واحد فيلسان العرب في الفخر يظهر أنه منأرجوزة لم تصل إلينــا .

* * *

وهو من الشعراء القلائل الذين كانوا يكتبون في عصره ، قال ابن حبيب : ومن شعراء المدينة الذين كانوا يكتبون ، كعب بن مالك، وقد كتب شعراً في يوم أحد ذكر فيه أسماء النقباء وأرسله إلى أبي سفيان وأبيّ بن خلف ، ردّاً علىكتابهما إلى الأنصار بشأنالرسول .

* * *

وارى ان كعباً يستحق أن يوضع بين الفحــول الإسلاميين لوضوح تأثره بالقرآن من حيث الأسلوب ، فقد وُفِّــق في محــاكاة أسلوب القرآن الكريم إلى حد بعيد ، من حيث الرقة والبعد عــن الغريب كما راينــا .

وقد امتاز بصدق العاطفة وقوتها ، فكان موفقــاً في ترجمة ما يحيط به من أحداث ، فجاء انفعاله بذلك قوياً ؛ إلى درجة تركت في نفوس قارئيه أثراً واضحاً وعميقاً .

وكان شاعراً مجوّداً مطبوعاً ، شأنه في ذلك شأن من سبقه من الشعراء الجاهليين ، ومن عاصره من الإسلاميين، أما عبارته فقد جوّد فيها ، ويتجلى ذلك في حسن تعبيره الذي كان يلائم فيه بين اللفظ والمعنى ، وفي سلامة التركيب لغوياً ونحوياً .

وأخيراً فقد كفاه فضلاً أن يكون أحد ثلاثة شعراء اعتمد عليهم الرسول في الذبّ عن دعوته ، فذاد عنه بلسانه ، ونافح عن فكرته بقولــه .

* * *

الاستشهاد بشعره :

وجد اللغويون في شعر كعب ما يحفظ لِلغة اصالتها،وللألفاظ فصاحتها ، فاعتمدوا عليه في تقرير البعض من ألفــاظهم اللغوية ، فعمد أصحــاب المعــاجم إلى شعره ، يستخرجون مــن الفاظــه ما يستشهدون بــه على معاني مادتهم اللغوية ، ويدللون بــه على ما يذهبون إليه من أحكام .

والملاحظ أن ما ورد له في هذه الكتب من أشعار قليل بالنسبة إلى ما ورد فيها من أشعار ، ومن الواضح أن ذلك راجع إلى سهولة

شعره ولينه ، وقلة الغريب فيه ، فابن منظور لم يسجل له في « اللسان » أكثر من ثلاثين بيتاً واقل من هذا العدد ورد في « تاج العروس » وهذا المقدار في اللسان أو التاج الضخمين شيء قليل جداً .

وكذلك صنع غيرهما من علماء اللغة فاستشهدوا بالقليل من شعره كالمبرد في الكامل ، وابن دريد في جمهرة اللغة ، وابن ولاّد في المقصور والممدود ، وابن فارس في مقاييس اللغة ، وابن جِنّي في المنصف ، وابن سِيده في المحكم ، والجواليقي في المعرب ، والزمخشري في الفائق وغيرهم .

ووجد الجغرافيون في شعره مورداً لاينضب لما تحدثوا عنه من الامكنة والبلدان ، فالبكري استشهد به في كثير من مواضع معجم ما استعجم ، وياقوت في معجم البلدان ، والسمهودي في وفاء الوفا .

أما المؤرخون فقد وجدوا في شعره ما يعينهم على تثبيت الحوادث والأعلام ، فقد كان مؤرخاً اميناً لحوادث عصره ، ومن هؤلاء المؤرخين الواقدي في المغازي ، وابن هشام في السيرة النبوية ، وابن سعد في الطبقات ، والطبري في تأريخه ، وابن الاثير في الكامل ، وغيرهم .

وهناك كتب أخرى حفلت بشواهد من شعره أيضاً ، عنيت بجوانب تختلف بطبيعتها عما رواه اللغويون أو الجغرافيون أو المؤرخون ، وتبحث في ميادين متعددة ، وعلوم متنوعة ، كعلوم القرآن والأدب والنسب والحيوان .

ولولا هذه الكتب التي حفظت لنا الكثير من آثار القدامى ؛ لضاع الكثير مما تبقى لدينا من شعر كعب .

* * *

(٣)

ديوانُه

لم يتوفر لدينا إلى الآن ديوان لكعب بن مالك ، يجمع أشعاره، ويحفظ آثاره ، ولكن إشارات وردت عنه في ثلاثة نصوص متفرقة هي :

١ ـ نص للعيني في الشواهد الكبرى ، على هامش خزانة الأدب .

قال : إني جمعت من كتب الدواوين للشعراء المتقدمين الذين احتج بهم نحاة الأولين والآخرين ، ما ينيف على مائة في عدد مبين ... وديوان كعب بن مالك الأنصاري (١) .

٢ ـ نص لحاجي خليفة في كشف الظنون ، في معرض تعديده للدواوين .

قال : (وديوان كعب بن زهير بن أبي سلمى ، وكعب بن مالك ابن أبي كعب بن القين السلمي الأنصاري (٢)) .

---

(١) شرح الشواهد الكبرى ٥٩٧/٤ .

(٢) كشف الظنون م٨٠٨/١ .

والملاحظ أنه لم يشر احد منهما إلى جامع النسخة التي ذكرها أو إلى مكانها . ونحن نعلم بأن حاجي خليفة متوفى سنة ١٠٦٧هـ ، فهو متأخر ، وهذا يعطينا بصيصاً من الأمل في العثور على ديوان كعب . ولكن حاجي خليفة نفسه يذكر في المقدمة عن مصادر كتابه :

(وجمعت كتابي هذا من الكتب التي جمعتها ، والتي اطلعت عليها في حلب واستنبول ، والمصنفات الجليلة الموقوفة في الخزائن العمومية بدار السلطنة ، ومن كتب الطبقات ، والتراجم وغيرها ، في مدة عشرين سنة) .

ويعني هذا أنه لم يشترط رؤيته لكل ما ذكره من المصنفات ، وإذا علمنا أنه لم يصف ديوان كعب المذكور ، كما هو شأنه في المصنفات التي رآها ، زاد من شكنا في رؤيته له ، وضعف أملنا في العثور عليه .

٣ ـ نص في هامش سيرة ابن هشام ، أثبته المحققون في معرض معارضة نص من شعر كعب مع رواياته الأخرى ، وهذا النص : وفي (أ) وديوان كعب المخطوط (البجود) (١) .

وقد انشرح صدري بالفرح عندما اطلعت على هذا النص لأول مرة ، وحسبت أني قد عثرت على ضالتي المنشودة وأملي الذي طالما راودني وهو العثور على ديوان مخطوط لكعب . ولكن أُسقط في يدي ـ مع الأسف ـ عندما كان جواب الأستاذ مصطفى السقا ـ وهو أحد محققي النسخة التي ورد فيها هذا النص ـ : كعب بن مالك ليس له ديوان مخطوط لدينا . فالنص إذن غير صحيح وقد ورد سهواً .

---

(١) ابن هشام ١٥٩/٢

ومع ذلك فلم أدخر وسعاً أو جهداً في البحث عن نسخة ديوانه ، في كل ما وجدت من فهارس المخطوطات ، ولكن جميع جهودي لم تثمر شيئاً .

وهناك أخذت نفسي بجمع أشعاره من شتى مظانّها ، ورحت أنقّب بين بطون الكتب والأسفار ، وقد لاقيت من المتاعب مالا يعلمها إلا من مارس مثل عملي ، ومما زاد صعوبة هذا العمل عدم وجود فهارس منظمة لأغلب ما رجعت إليه من المصادر . ومع ذلك فقد عدت من رحلتي هذه بخمسمائة وأربعة وثمانين بيتاً ، موزعة على شتى المصادر التي تمتد من القرن الثاني إلى الثاني عشر . وبذلك حققت أملاً طالما سعيت لتحقيقه ، وصنعت ديوانه وتم طبعه والحمد لله(١) .

* * *

(١) نشر هذا الديوان بتحقيق المؤلف في بغداد .

(٤)

نماذج من شعره

قال يوم بدر :

لعمر أبيكما يا ابنَي لؤي
على زَهْو لديكم وانتخاءِ

لمَاَ حامت فوارسُكم ببدر
ولا صبروا به عند اللقاءِ

وردناه بنور الله يجلو
دُجى الظلماء عنّا والغِطاءِ

رسول الله يقدمنا بأمر
من امْرِ الله أُحكم بالقضاءِ

فما ظفرتْ فوارسُكم ببدر
وما رجعوا إليكم بالسواءِ

فلا تعجل أبا سفيان وارقُب
جيادَ الخيل تطلع من كَداءِ

بنصر الله روح القدس فيها
وميكال فياطيب المَلاءِ

وقال يرثي رسول الله ﷺ :

أيا عيــن فابكي بدمــع ذَرَى
لخـير البريّـــة والمصطفـــى

وبكّي الرسول وحقّ البكـا
عليــه لــدى الحرب عند اللقـــا

عــلى خير مــن حملت ناقـــة
واتقــى البريّــة عنــد التقـــى

عــلى سيــد مــاجد جَحْفَـــل
وخــير الأنـــام وخــير اللهـــا

لــه حسب فــوق كــل الأنـــا
م مــن هــاشم ذلــك المرتجـــى

نخص بمــا كــان مــن فضلـــه
وكان سراجاً لنــا في الدجى

وكــان بشــيرا لنـــا منــذراً
ونوراً لنــا ضوؤه قد أضـــا

فأنقذنـــا الله في نـــوره
ونجّـــى برحمتـــه مــن لَظَـــى

وقال يبكي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه :

طرقت همومك فالرقــادُ مسهّد
وجزعتَ أن سُلخ الشباب الأغيد

ودعتْ فؤادك للهوى ضَمْريّةٌ
فهواك غوريّ وصحوك منجــد

فـدع التمادي في الغواية سـادراً
قـد كنت في طلب الغوايـة تفْنَـد
ولقد أتى لـك أن تناهَى طائعـاً
أو تستفيقَ إذا نهاك المرشـد
ولقد هددتُ لفقـد حمزة هـدّة
ظلّت بنات الجوف منها تَرعد
ولو أنـه فجعت حِرَاء بمثلـه
لرايت راسي صخرهـا يتبـدد

وأجاب ضرارُ بن الخطاب في يوم بدر فقال :

عجبتُ لأمـر الله والله قـادر
عـلى ما أراد ليس لله قاهـرُ
قَضَى يـوم بدر أن نلاقيَ معشرا
بغَوا وسبيل البَغْي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم
من الناس حتى جمعهم متكاثرُ
وسارت إلينا لا تحاول غيرَنـا
بأجمعهـا كَعـبٌ جميعاً وعـامرُ
وفينا رسول الله والأوس حولَـه
له معقل منهم عزيـزٌ وناصـرُ
وجمعُ بني النجار تحت لوائـه
يـمَشّون في الماذيّ والنَّقع ثائـرُ
فلما لقيناهم وكـلٌ مجـاهدٌ
لأصحابه مستبسلُ النفس صابرُ

شهدنا بأن الله لاربّ غيره
وأنّ رسول الله بالحق ظاهر
وقد عرِّيت بيض خِفاف كأنها
مقابيسُ يُزهيها لعينيك شاهر
بهنّ أبدنا جمعهم فتبددوا
وكان يلاقي الحَيْنَ من هو فاجر

وقال يعذّر أيمن بن أم أيمن لتخلفه عن خيبر :

على حين أن قالت لأيمنَ أمه
جبنتَ ولم تشهد فوارس خيبرِ
وأيمن لم يجبن ولكنّ مهره
أضر به شرب المديد المخمّرِ
ولولا الذي قد كان من شأن مهره
لقاتل فيهم فارساً غير أعسرِ
ولكنه قد صدّه شأن مهره
وما كان لولا ذاكم بمقصّرِ

وقال يفتخر :

الا أيهذا السائلي عن عشيرتي
هلمّ إلى أهل المكارم والفخرِ
أنا ابن مباري الريح عمرو بن عامر
نمتَ إلى قحطان في سالف الدهرِ
نصرنا رسول الله إذ حلّ وسطنا
ببيضِ اليمانيّ المثقفة السمْرِ

وقال حين اجمع الرسول ﷺ السير إلى الطائف :

قضينا من تهامة كل ريب
وخيبرَ ثم أجممنا السيوفا

نخيرها ولو نطقتْ لقالت
قواطعهن : دوساً أو ثقيفا

فلست لحاضن إن لم تروها
بساحة داركم منّا ألوفا

وننتزع العروش ببطن وجّ
وتصبح دوركم منكم خلوفا

ويأتيكم لنا سَرَعان خيل
يغادر خلفه جمعا كثيفا

* * *

المــراجع

ابن الأثـــير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري .
(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة (الاسلاميــة بطهران ١٣٤٢هـ) .
(٢) الكامل في التاريخ . (دار الطباعة بالقاهرة ١٢٩٠ هـ) .

الأصفهـاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي .
(٣) الأغاني (من الجزء الأول إلى السادس عشر طبعة دار الكتب . اما بقية الاجزاء فهي طبعة ساسي) .

الأصفهـاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله .
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (السعادة بمصر ١٩٣٢ ـ ١٩٣٨) .

البخـاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل .
(٥) الصحيح . (طبع محمد علي صبيح وأولاده بمصر) .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر .
(٦) أنساب الأشراف (الجزء الأول تحقيق الدكتور محمد حميد الله دار المعارف بمصر ١٩٥٩) .

حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله .
(٧) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .
(طبع بعناية وكالة المعارف في استنبول ١٩٤٣) .

ابن حجـــر : شهاب الدين أبو الفضل، أحمد بن علي العسقلاني.
(٨) الإصابة في تمييز الصحابة . (الشرقية بمصر).

الخشنـــي : أبو ذر بن محمد بن مسعود .
(٩) شرح السيرة النبوية . (تصحيح بولس برونله ـ مطبعة هندية بمصر ١٣٢٩) .

السخـــاوي : محمد بن عبد الرحمن .
(١٠) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة .
(السنة المحمدية بمصر ١٩٥٧) .

ابن سعـــد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري .
(١١) الطبقات الكبرى . (بريل في ليدن ١٣٢٢هـ).

ابن ســـلام : محمد بن سلام الجمحي .
(١٢) طبقات الشعراء . (تحقيق محمود محمد شاكر . دار المعارف بمصر) .

السمهـودي : نور الدين علي بن أحمد .
(١٣) وفاء الوفا باخبار دار المصطفى (السعادة بمصر ١٩٥٥) .

الطبـــري : أبو جعفر محمد بن جرير .
(١٤) تاريخ الرسل والملوك . (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) .

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري .
(١٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب . (حيدر آباد ١٣١٨هـ) .

ابن عبد ربه : أبو عمر ، شهاب الدين . أحمد بن محمد الأندلسي.
(١٦) العقد الفريد . (الطبعة الثانية لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر) .

ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي .
(١٧) شذرات الذهب في أخبار من ذَهَب . (القدسي بمصر ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ) .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر .
(١٨) البداية والنهاية . (السعادة بمصر ١٩٣٢) .

النَّسَائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب .
(١٩)سنن النسائي. (المطبعة المصرية بالازهر ١٩٣٠).

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
(٢٠) نهاية الارب في فنون الادب . (الطبعة الثانية. دار الكتب المصرية ١٩٢٩) .

الواقدي : أبو عبد الله محمد بن عمر .
(٢١) مغازي رسول الله . (السعادة بمصر ١٩٤٨).

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك .
(٢٢) السيرة النبوية . (تحقيق مصطفى السقا وجماعته الحلبي الطبعة الثانية ١٩٥٥) .

الفهرس